الفصل الخامس

الكتابة والكتاب في العصور الوسطى

لقد بحثنا في الفصل السابق مفهوم العصور الوسطى وناقشنا فكرة تقسيم مجرى التاريخ الانساني الى عصور مختلفة ذات صفات معينة ، وذكرنا ان فكرة العصور الوسطى ، بأوصافها ومميزاتها وماتحمله من مفاهيم ، تنطبق اكثر مايكون الانطباق على اوربا الغربية خلال فترة من الزمن تمتد حوالي الف سنة .

لقد تعاصر ، في هذه الفترة ، مع العصور الوسطى في اوربا الغربية بيزنطة وتاريخها الذي امتد حوالي الف سنة . وقد امتازت هذه الفترة البيزنطية بميزات كثيرة وصفات معينة بعضها مشابه لما كان جارياً في اوربا ، وبعضها الآخر يخالفه مخالفة جذرية .

كذلك تعاصر مع تلك الفترة التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية ذات المميزات الخاصة بها ، والتي تناقض ، على خط مستقيم ، ما كان جارياً في اوربا الغربية .

ولما كان اهتمامنا هنا منصباً على تطور الكتاب والكتابة في اوربا الغربية وبيزنطة وغيرهما من اجزاء العالم ،باستثناء العالم الاسلامي ، الذي سيكون له معالجة خاصة باذن الله ، لذا سينصب اهتمامنا هنا على بحث تاريخ وتطور الكتاب والكتابة في كل من اوربا الغربية وبيزنطة خلال الفترة المبحوثة المذكورة آنفاً .

١ـ الكتاب والكتابة في الامبراطورية البيزنطية :

يعتبر التاريخ البيزنطي ـ من وجوه كثيرة ـ امتداداً للتاريخ الروماني . ذلك ان الامبراطورية البيزنطية هي ، اساساً ، القسم الشرقي من الامبراطورية الرومانية . فقد قسم الامبراطور ديوكليشيان (اواخر القرن الثالث واوائل القرن الرابع الميلادي) الامبراطورية الرومانية الى قسمين شرقي وغربي وذلك من اجل تسهيل ادارتها وحمايتها والدفاع عنها في وجه هجمات البرابرة . وقد ضم القسم الشرقي من الامبراطورية الرومانية شبه جزيرة البلقان بكاملها واسيا الصغرى وسورية ومصر وشمالي افريقيا . ولقد انهار القسم الغربي من الامبراطورية الرومانية الذي عاصمته روما تحت ضربات البرابرة في القرنين الرابع والخامس الميلاديين . ولقد اعتبر سقوط روما سنة ٤٧٦ م بيد البرابرة بداية للعصور الوسطى وانتهاءً للعصور القديمة . ولقد نجا القسم الشرقي من الامبراطورية الرومانية من هذا المصير واصبح مقراً ومستودعاً للتراث اليوناني الروماني وقد تفاعل هذا التراث مع الحضارة الشرقية ، ونشأ من هذا التفاعل التراث البيزنطي وقد اطلق العرب المسلمون على البيزنطيين ودولتهم اسم الروم ودولة الروم . وقد تعرضت هذه الامبراطورية لهزات عنيفة اتتها من الشرق والغرب والشمال والجنوب . فقد دأبت شعوب البلغار والآفار من الشمال والغرب على مهاجمة عاصمة الامبراطورية ـ القسطنطينية ـ حتى وصلوا الى اسوارها . كذلك هددها الفرس من الشرق ونشبت بين الطرفين حروب كثيرة وطاحنة امتدت عدداً طويلاً من السنين ، وكان آخرها تلك التي نشبت في اوائل القرن السابع الميلادي قبيل التحرير الاسلامي لبلاد الشام وبلاد الرافدين وبلاد فارس ومصر ، ونجد انعكاس هذه الحروب في القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ الم ، غلبت الروم في ادنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين لله الامر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ﴾[1] .

---

(١) سورة الروم : الآيات ١ ـ ٥ .

ثم تلقت هذه الامبراطورية ضربة هائلة كادت تودي بحياتها ، وذلك عندما ظهر الاسلام واصبح القوة العظمى في العالم ، وبدأ المسلمون الاوائل عملية التحرير التي اسفرت ، خلال عقد من السنين بعد انتقال الرسول الكريم ﷺ الى الملأ الاعلى ، عن تحرير اقاليم بلاد الشام وبلاد الرافدين وقسم من بلاد فارس ومصر وقسم من شمالي افريقيا ، ثم تابع المسلمون عملية التحرير في العهد الاموي وتمكنوا من تحرير جميع شمالي افريقيا من ربقة البيزنطيين . وقد ظلت الحروب مستعرة بين البيزنطيين والمسلمين طوال تاريخهم . وظهر الاتراك السلاجقة في القرن الحادي عشر ميلادي وبدأوا زحفهم السكني على الاناضول وحاربوا الامبراطورية البيزنطية وهزموها اكثر من مرة وسكنوا في الاناضول . كذلك هاجم الصليبيون الزاحفون على بلاد الشام عبر القسطنطينية العاصمة واحتلوها في مفتتح القرن الثالث عشر ، ثم استرد البيزنطيون عاصمتهم واستمروا في الوجود حتى سنة ١٤٥٣م عندما احتل محمد الفاتح العثماني القسطنطينية وانهى الوجود الرومي البيزنطي .

سميت هذه الامبراطورية ونسبت الى مدينة صغيرة اسسها المهاجرون اليونان في القرن السابع ق.م على البر الاوربي على مضيق البوسفور الذي يصل بين البحر الابيض المتوسط والبحر الاسود اسمها بيزنطيومByzantium ، ولما اصبح الامبراطور قسطنطين في مفتتح القرن الرابع ميلادي الحاكم الفعلي للامبراطورية الرومانية بشقيها الغربي والشرقي اسس مدينة جديدة قرب موقع مدينة بيزنطيوم القديمة واسماها باسمه وهي مدينة القسطنطينية الحالية او كما تسمى الآن باسم استانبول . وكان ذلك حوالي سنة ٣٢٨ م وجعلها عاصمة له ، ومن ثم اصبحت عاصمة الامبراطورية الشرقية اكثر من الف عام . هذا وان الحضارة البيزنطية متأثرة باليونان اكثر من تأثرها بالرومان ، ومتأثرة بالشرق اكثر من تأثرها بالغرب . وتنبع اهميتها في تاريخ الحضارات من الدور الذي لعبته في البلقان وفي روسيا ، اذ انها هي التي ادخلت الديانة المسيحية على المذهب الارثوذكسي الى كل من البلقان وروسيا وصبغت الاقليميين بالمؤثرات البيزنطية ـ اليونانية الممزوجة بالمؤثرات الشرقية والديانة المسيحية الشرقية . كذلك حفظت بيزنطة قسماً مهماً من

التراث الكلاسيكي (اليوناني الروماني) في مكتباتها وأديرتها . فقد وجدت نسخ من مؤلفات مؤلفي اليونان القدامى في القرنين الرابع عشر والخامس عشر طريقها إلى أوربا - وبخاصة إلى ايطاليا ، وساهمت في ظهور عصر النهضة .

لقد ازدهرت في الامبراطورية الرومانية الشرقية حياة الأديرة حتى في زمن أبكر من ازدهارها في غربي اوربا . فقد تأسست الأديرة في آسيا الصغرى وبلاد اليونان قبل سنة ٥٠٠ م ، وكانت لها قوانينها الخاصة التي تشجع على الدراسة والتحصيل ونسخ المخطوطات . ولكن حدث ، فيما بعد في القرن التاسع ميلادي أن تأسست أديرة جديدة كانت أنظمتها تصر على ايجاد مكتبة وعلى تعلم النسخ ووضعت قواعد وأنظمة من أجل ذلك .

وأشهر هذه الأديرة دير ستوديونStudion قرب القسطنطينية الذي اصدر رئيسه الأب تيودور في القرن التاسع قواعد ولوائح تبين طريقة النسخ واستعمال المكتبة في هذا الدير وجميع الأديرة الأخرى ، والبالغ عددها عشرين ديراً ، التابعة له والمنتشرة على جبال شبه جزيرة آتوس الصغيرة الموجودة في البحر الايجي . وهذه الأديرة مهمة لغنى مكتباتها بالأعمال الدينية التي وصل بعضها سالماً لنا . وعلى الرغم من أن العمود الفقري لمجموعات الأديرة كان الأعمال الدينية ، إلا أنها حوت أعمالاً كلاسيكية وحتى علمية وطبية ، ذلك أن بعض الأديرة أُلق بها مشافي وكانت تخرج الرهبان ، ولذلك ألحق بالمكتبة الديرية مجموعة كتب علمية وطبية .

ولقد كانت هذه الأديرة البيزنطية ، كما كانت مكتبات بيزنطة نفسها مورداً لايثمن للكشوف الأثرية التي قام بها هواة جمع الكتب النادرة والمخطوطات الثمينة في أوربا في عصر النهضة الحديثة . وعلى الرغم مما عانته هذه الأديرة من أزمات وكوارث حلت بها على مرور السنين ، وعلى الرغم من أنه لم يبق بها شيء تقريباً من مجموعاتها الأصلية القديمة ، إلا أن مابقي بها بعد ذلك يعتبر اليوم ، إلى حد كبير ، كنوزاً ثمينة من بقايا القرون الأولى للعصر الوسيط ، وإن كانت هذه الآثار صعبة المنال لمن هم خارج هذه الأديرة بطبيعة الحال .

وكان من بين هذه الكشوف ماقام به العالم واللغوي الالماني تيشندورف Tischendorf في دير سانت كاترين الواقع في شبه جزيرة سيناء سنة ١٨٤٤ م .

من انقاذ ثلاث وأربعين ورقة من نسخة العهد القديم اليوناني من يد رهبان الدير بعد أن كانوا اعتزموا إحراقها على أنها أشياء قذرة لاتستحق الاحتفاظ بها ، وهي لاتزال محفوظة الى اليوم بمكتبة جامعة لايبزيغ ، كذلك كان لهذا العالم نفسه حظ العثور ، بعد عدة سنوات ، على جزء آخر من نفس المخطوط . كما عثر على نسخة شبه كاملة من العهد الجديد وقد قدمها هدية الى قيصر روسيا آنذاك . وهذه النسخة الشهيرة من الانجيل مكتوبة على الرق وباليونانية وتسمى باسم مخطوط سيناءCodex sinaiticus . وهو يعتبر أيضاً أقدم مخطوط اغريقي من القرن الرابع الميلادي . وقد أودعت هذه النسخة في مكتبة بطرسبورغ في روسيا ، وأخيراً اشتراها المتحف البريطاني سنة ١٩٣٢ م بمبلغ مائة ألف جنيه .

لقد شهدت الفترة الواقعة بين عامي ٨٥٠ و ١١٠٠ م نهضة في التأليف في بيزنطة ووجد بها مؤلفون كثيرون ، وعلى الرغم من أن أغلب أعمالهم تلخيص وإيجاز لأعمال من سبقهم ، إلا أنهم اغنوا الأدب اليوناني من جهة ، وحفظوا لنا بذلك مؤلفات قديمة ضاعت أصولها ولم تصلنا إلا عن طريقهم من جهة أخرى . فقد جمع بطريرك القسطنطينية فوتيوس ولخص في كتابه (المكتبة) حوالي ٢٨٠ مؤلفاً لمؤلفين قدماء . وبالرغم من أن أغلب هذه المؤلفات ذو صبغة دينية إلا أن منها بعض الأعمال الأدبية والتاريخية وحتى الفنية . وتدل هذه الكتب الملخصة على ذوق رفيع في انتقاء الكتب وتدل على غنى المكتبة البيزنطية بشكل عام .

ولقد انتشر نفوذ بيزنطة واشعاعها خارج حدودها عدداً من المرات خلال تاريخها الطويل المضطرب ، وامتد من سيلان الى باريس ومن اسبانيا الى موسكو . فقد حصل شارلمان امبراطور غربي اوربا المشهور على نسخ من الكتب من مكتبة القسطنطينية الامبراطورية واضافها الى مكتبة القصر التي أنشأها في عاصمته آخن . ولقد استعارت مكتبات الأديرة في ارمينيا نسخاً كثيرة من كتب دينية من القسطنطينية ، ولايزال عدد من هذه النسخ محفوظاً حتى الآن في المكتبة العامة في اريوان عاصمة جمهورية ارمينيا السوفياتية . ولقد تأثر المسلمون ، الذين اقتطعوا في القرن السابع الميلادي وحرروا قسماً مهماً من أملاك الامبراطورية البيزنطية ، بعض التأثر ، بمؤثرات في حقول الفن والفلسفة والعلوم السياسية .

ولكن البيزنطيين مارسوا نفوذاً قوياً وواسعاً في صقلية وجنوبي ايطاليا ، حيث نجد أن إحدى مكتباب الأديرة في القرن الحادي عشر كانت تحوي كتباً كلاسيكية مؤلفة باللغة اليونانية لم تكن معروفة لدى بقية اوربا آنذاك . ولقد حصلت امبراطورة الصرب اليزابيث في القرن الثالث عشر على مكتبة يونانية من القسطنطينية . وحصل أمير مولدافيا في القرن الرابع عشر على مكتبة تحوي كتباً كلاسيكية من نفس المصدر . وهكذا يمكن ملاحظة أن كتابات كبار المؤلفين الكلاسيكيين لم تفقد فقداً تاماً من غربي اوربا ، ذلك أن هذه المؤلفات كانت موجودة بشكل دائم عند البيزنطيين ، وكانت أيضاً بحوزة اولئك الذين تأثروا بالثقافة والحضارة البيزنطية . ومع ذلك يمكن القول أن دائرة هذه المؤثرات كانت ضيقة ومحدودة جداً في الزمان والمكان . كذلك كانت دائرة المؤلفات الكلاسيكية ضيقة وتدور حول عدد معين من عدد محدود جداً من الكتاب .

ولسوء الحظ ، فإن حضارة بيزنطة التي ظلت مزدهرة فترة طويلة من الزمن بدأت في الانحطاط والتدهور بعد سنة ١٢٠٠ م . ولقد افتتح عهد الانحطاط هذا الغزو النورماندي للبلقان في أواخر القرن الثاني عشر . وعندما احتل الصليبيون في الحملة الصليبية الرابعة القسطنطينية سنة ١٢٠٤ م أمكن القول أن هذه المدينة الرائعة دمرت تدميراً يكاد يكون كاملاً ونهبت محتوياتها نهباً ذريعاً . فقد نهب الغزاة القساة الجهلة محتويات مكتبات القسطنطينية أشنع نهب ودمر وأحرق القسم الأكبر من محتوياتها وذلك لجهل الغزاة وبربريتهم . على أن عدداً من أفراد القوات الغازية أدرك أن هذه المخطوطات قد تكون ذات قيمة لابأس بها ، فاحتفظوا بها لأنفسهم ثم باعوها بابخس الأثمان واوكسها لتجار المخطوطات الايطاليين الذين اشتروا الحثالة الباقية من ذلك التراث الرائع وجنوا من ورائها ثروات طائلة .

ولقد رفض البيزنطيون الخضوع للصليبين الهمج وأعاد الامبراطور يوحنا الثالث ١٢٢٢ ـ ١٢٥٤ م تأسيس الامبراطورية بعد سقوط القسطنطينية وجعل عاصمتها مدينة نيقية حيث أسس هناك مكتبة امبراطورية ، وأصبحت نيقية مركزاً ثقافياً في القرن الثالث عشر فيها الكثير من الكنائس والأديرة والمشافي والمدارس .

وقد استعاد البيزنطيون قواهم وحاربوا أعداءهم النورمانديين وتمكنوا من استعادة سالونيك منهم سنة ١٢٤٦ م . وأخيراً استعادوا القسطنطينية منهم سنة ١٢٦١ م ، وعندئذ أعاد الامبراطور ميشيل باليولوغوس تأسيس المكتبة الامبراطورية في قصره . ولكن اعادة تأسيس الامبراطورية لم يكن يعني شيئاً ذا أهمية لبيزنطة ، ذلك أن الاعداء أحاطوا بها من كل جانب كالايطاليين والصرب والبلغار والأتراك . كما وأن الانقسامات والاختلافات الدينية مزقت الدولة والشعب أسوأ تمزيق وبدأت تفقد اقاليمها بالتدريج حتى إذا أهل القرن الخامس عشر لم يبق من تلك الامبراطورية السامقة سوى رقعة ضيقة من الأرض تحيط بالعاصمة القسطنطينية .

ولكن الغريب في الأمر أن هذا التدهور السياسي رافقه يقظة في الأدب البيزنطي ، وكانت العاصمة تغص بالمدارس والمشافي والمكتبات والكنائس والأديرة ، وطبعاً كانت هذه يقظة سطحية هي صحوة الموت . وأخيراً أتاها الموت يحمله لها السلطان العثماني محمد الفاتح الذي احتل القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م وأنهى حياة امبراطورية استمرت في الوجود أكثر من ألف عام . ولقد نهبت المدينة بعض النهب ، ولكن ما أن استتب الأمر للسلطان العثماني حتى أمن السكان على أرواحهم وأموالهم وممتلكاتهم . وعلى الرغم من أن بعض المخطوطات دمرت لأن الجنود المهاجمين لم يكونوا يفهمون لغة المخطوطات التي كانت غريبة عليهم ، وهي اليونانية في أغلب الحالات ، إلا أن الحكومة أدركت أن هذه المخطوطات قد تكون ذات قيمة ، ولذلك حمت الحكومة العثمانية هذه المخطوطات ومنعت من نهبها وتدميرها . وسرعان مانشأت بعد ذلك تجارة للمخطوطات كان قوامها تجار البندقية الذين استأنفوا علاقاتهم التجارية مع الدولة العثمانية ، وانتقل بهذه الطريقة عدد كبير من المؤلفات الكلاسيكية الى الغرب كان لها دور هام في البعث الذي حصل في اوربا بعد فترة وجيزة من الزمن وهو مايعرف باسم عصر النهضة Renaissance .

إن من المستحيل معرفة عدد المكتبات وعدد الكتب التي كانت موجودة في القسطنطينية عند سقوطها بيد العثمانيين ، ولكن يمكن القول أن تجارة المخطوطات

اليونانية ظلت قرابة قرن كامل معتبرة من الأعمال التجارية المربحة .

إن أهمية بيزنطة للعالم الغربي لاتنبع من نتاجها في حقلي الأدب والفن ، وإنما تنبع أيضاً من أنها حفظت أبان القرون الوسطى المظلمة في الغرب قسماً مهماً من التراث الكلاسيكي اليوناني الروماني في وقت كاد يفقد فيه فقداً تاماً في اوربا . ويمكن القول أن مانعرفه الآن عن التراث اليوناني فإن نصفه أتى من نسخ كانت محفوظة لدى بيزنطة . وأن انتقال المخطوطات من الشرق الى الغرب بدأ حتى قبل سنة ١٢٠٠ م ولكنه وصل ذروته خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر . وكانت المخطوطات لدى بعض التجار أربح وأثمن مادة تجارية يمكن أن يتاجروا بها . ولقد أثارت هذه المخطوطات وأحيت الاهتمام بالأداب اليونانية والفلسفة والتاريخ وهو ماعرف كما ذكرنا سابقاً باسم النهضة . ولذا يمكن القول أن انحطاط بيزنطة كان السبب ورافق نهاية العصور الوسطى في اوربا الغربية وولادة عصر النهضة فيها .

٢ـ الكتاب والكتابة في اوربا الغربية في اوائل العصور الوسطى حتى حوالي ١١٠٠ م:

لقد بحثنا فيما مضى مفهوم العصور الوسطى وذكرنا أن ذلك ينطبق على اوربا الغربية وحدها خلال تلك الفترة . ولذلك لاحاجة لاعادة مابحثناه سابقاً هنا .

لقد شاهد القرنان الرابع والخامس غارات البرابرة على الامبراطورية الرومانية ، وقد أدت هذه الغارات في نهاية القرن الخامس الى سقوط روما بأيديهم وتحطم القسم الغربي من الامبراطورية الرومانية تحت وطأة غاراتهم وتقسمت اوربا الغربية الى عدد كبير من الدويلات يحكمها البرابرة الجاهلون الذين لم يلبثوا أن اهتدوا الى المسيحية ، ومن ثم بدأت الكنيسة تسيطر على نواحي الحياة في اوربا وبدأت تحتكر لنفسها النواحي العقلية والدينية ، ولذلك ساد في اوربا الجهل والتعصب ، وانحصر العلم والتعلم ـ الديني وحده ـ في الكنيسة ورهبانها . ولذلك ، ولما كانت غارات البرابرة الجهلة قد قضت على أغلب المؤسسات المدنية

الموجودة في اوربا ، وكان نصيب الكتب والمكتبات من ذلك الدمار موفوراً جداً حتى كادت تفقد الكتب كلية وساد الجهل والأمية بين أفراد الشعب ، فقد نشأت المكتبات في اوربا الغربية في العصور الوسطى أول مانشأت في الكنائس والأديرة ، ووجدت حثالة المخطوطات التي نجت من الدمار ملجأ لها في الكنائس والأديرة ، وأصبحت الأديرة مركز التعليم في تلك العصور المظلمة وتضم بين جنباتها عدداً من المخطوطات أغلبها ديني ، تحرص عليها بشدة ولاتتيح مطالعتها إلا لرجال الدين وحدهم ، فعوضاً عن مكتبات المعابد التي كانت موجودة في غرف مفروشة بالرخام كانت مكتبة الدير مجموعة صغيرة من الكتب لاتتجاوز بضعة مئات من الكتب ذات الكراريس موضوعة في صندوق أو صندوقين في إحدى زوايا غرفة العبادة .

لقد انتشرت الحياة الديرية حتى في زمن أبكر من الغارات البربرية ، ولعل أول من أسس ديراً ووضع القواعد الناظمة للحياة فيه هو القديس باخوميوسPachpmius الذي أسس أول مجتمع ديري على أسس مسيحية سنة ٢٥٠ م ، وأسسه في مصر على حافة الصحراء . وكان كل فرد في هذا المجتمع الديري يعيش منعزلاً عن الآخرين ولايتقابل الجميع إلا في وقت الصلاة عندما يشترك الجميع في صلاة جماعية ويتلقون التعليمات من رئيس الدير . وكان هذا الراهب يعتقد أن المجتمع الديري يجب أن يكفي نفسه بنفسه ، ولذلك علم أعضاء الدير عمل السلال والحدادة والخياطة وأصبحت هذه أول قواعد الأنظمة الديرية .

ولقد ازداد اقبال الناس على الأديرة ، مع اشتداد عنف الغارات البربرية ، لأن الدير كان هو المكان الوحيد الذي يستطيع المرء أن يجد فيه شيئاً من الأمان على حياته وذلك بسبب احترام البرابرة لهذه المؤسسة الدينية . ولقد اختفت في ذلك العصر جميع مميزات وخصائص الحياة الرومانية القديمة من شجاعة وافتخار بالوطن ، وحلت محلها مفاهيم مسيحية ذات خصائص مناقضة للمفاهيم الرومانية القديمة ، وتأخرت الصناعة وهجرت الحقول وأصبح البحث في مستوى منخفض كل الانخفاض واغلقت المكتبات ودمر قسم كبير جداً منها ومن الكتب ، واختفى

أو زال القسم الأعظم من الأدب الكلاسيكي . وكان من الممكن أن يزول في ذلك العصر المضطرب كل الأدب الكلاسيكي لولا جهود بعض العلماء والبحاثة النادرين من أمثال بوثيوس Boethius وكاسيودوروس . لقد تابع بوثيوس الذي يوصف أنه آخر الارستوقراطية الرومانية عملية التعلم والبحث عن الحقيقة لذاتها ، وقد كتب وألف في الرياضيات والموسيقى والفلك وترجم عدداً من كتب ارسطو وافلاطون . وتعتبر اعترافاته قطعة أدبية كلاسيكية . وقد مات بوثيوس واعتبرته الكنيسة شهيراً مسيحياً .

ويعتبر الدير الذي أسسه كاسيودوروس في ايطاليا من أقدم الأديرة التي انشئت في اوربا في القرن الخامس الميلادي . لقد تعاصر كاسيودوروس البحاثة المسيحي مع بوثيوس وهرب من روما بعد أن حوصرت وسقطت بيد الأعداء ، وهناك اتجه تفكيره نحو انقاذ مايمكن انقاذه من الأداب المسيحية من بين براثن البربرية ، ولذا فقد اعتزل الحياة العامة وأسس في جنوبي ايطاليا ديراً اسماه دير فيفاريومVivarium وأقام به مايشبه اكاديمية مسيحية ووضع له نظاماً نص فيه على أن يقوم الرهبان بقراءة النصوص الدينية بتمعن أو أن ينسخوا نسخاً عنها ، ولم يقصد بهذه النصوص الكتابات المقدسة الدينية فحسب ، وإنما قصد بها أيضاً سائر الكتب العامة الاغريقية واللاتينية ، ولذا فقد درب الرهبان على نسخ الأداب النصرانية والوثنية معتقداً (أن الشيطان يجب أن يحارب بالقلم والحبر) . ولذا يمكن اعتبار كاسيودوروس هو الشخص الأول المسؤول عن مكتبة الدير وانتشارها في اوربا وعن المنسخ ووجوده ونشاطه في الأديرة .

لقد كان كاسيودوروس ناقلاً مدققاً . والف عدداً من الكتب تحوي قواعد ناظمة لعملية نسخ المخطوطات ، واخترع طريقة مناسبة لتجليد المخطوطات . كذلك الف كتاباً مهماً عن تاريخ القوط ، ولسوء الحظ يبدو ان هذا المخطوط اما فقد او اتلف .

ولقد تعاصر مع كاسيودوروس ونشاطه في حقل الكتب والمكتبات الديرية ، وربما فاقه ايضاً ، نشاط رهبان البندكيتين ومؤسس نظامهم الرهباني القديس بندكت في حقل الكتب والمكتبات واحيائهم للتراث الكلاسيكي . فقد اسس القديس بندكت Benedict رهبنته نسبت اليه وسميت باسمه . وقد سمي بندكت باسم له دلالته اذ سمي باسم (والد الديرية) . لقد بدأ بندكت حياته شاباً مترفاً غنياً ارسله اهله الى روما للدراسة ، ولكن الحياة في روما لم تعجبه فهرب منها الى كهف ،حيث اجتمع معه فيه عدد كبير من الشباب الذين هربوا من حياة روما ولجأوا للكهف للتمتع بالهدوء والصفاء ، وبعد فترة انتقل الى قرية مونت كاسينو في ايطاليا حيث اسس ديراً سنة ٥٢٨ م قرب قرية معروفة بهذا الاسم فنسب الدير اليها . ولقد ذاعت شهرة هذا الدير في كل اوربا وكان اكثر الاديرة نفوذاً فيها . وقد انطلق منه الرهبان الى ارجاء اوربا لتأسيس الاديرة ولنشر تعاليم وعقيدة القديس بندكت البسيطة وهي : ان العمل يجلب صحة جسدية وروحية معاً .

ولقد دمر دير كاسينو عدة مرات عبر العصور واعيد بناؤه واهمل كثيراً ، وأخيراً دمر كلياً في الحرب العالمية الثانية خلال المعارك التي دارت بين الحلفاء والالمان ، ولم يبق منه الا بقايا جدار مائل . ولقد اعاد الامريكيون بناءه وحفظوا بعناية قسماً ضئيلاً من الجدار الاصلي .

لقد الف بندكت قواعده وهي دليل العيش ضمن جدران البيت الديني الذي هو الدير . وقد وضع القواعد الناظمة لجميع مناحي حياة الرهبان : اكلهم وطعامهم وصلواتهم واوقاتها وعملهم في الحقل وجني المحصول . . . واوقات المطالعة وتعلم اليونانية واللاتينية واوقات العناية بالمرضى . وقد خصص المادة ٤٨ من قواعده لنسخ المخطوطات . وقد اكد في قواعده هذه اهمية قراءة الكتب والنصوص تأكيداً قوياً جداً ، مما جعل هؤلاء الرهبان يخصصون كل اوقات فراغهم للقراءة ، بل لقد تشدد بعض شيوخهم في مراعاة الرهبان لنظام الطائفة في هذا الشأن . ولقد انتشرت الاديرة البندكتية باعداد كبيرة في كل اوربا تدريجياً خلال النصف الثاني من القرن السادس ودرست الاداب اللاتينية ونسخت جنباً

الى جنب مع المؤلفات الدينية في تلك الاديرة . ولقد تأثر بندكت في افكاره ومبادئه ونشاطاته بكاسيودوروس ، ومارس هو نفسه نفوذاً قوياً على طلابه واتباعه حتى جعل زعماء الانظمة الديرية يفخرون بالدير باعتباره مركزاً للتعلم والتعليم . ولقد اسس موروMaurus تلميذ بندكت ديراً سمي باسمه على نهر اللوار في فرنسا .

لم تكن قراءة الرهبان هؤلاء للادب، القديم ونسخهم اياها حباً في هذا الأدب ذاته ، وانما كانت راجعة الى ضرورة تعلمهم اللغة اللاتينية ذلك أنهم كي يتمكنوا من قراءة الأدب الكنسي وكي يصلوا الى مرحلة اجازة اللغة اللاتينية لغة الأدب الكنسي انصرفوا الى الثقافة القديمة والأدب القديم الذي لم يكن بالنسبة لهم سوى وسيلة لبلوغ وتحقيق هدف محدد خاص .وهكذا نشأت ،بفضل نشاط هؤلاء الرهبان ،ثقافة دولية امكنها ، على الرغم من طابعها الديني القوي ، أن تحافظ على صلتها بالحياة الروحية للعصر الكلاسيكي .لقد كان البندكتيون حفظة للثقافة المسيحية وللثقافة الكلاسيكية ومعلمين لهما .

انتشار الاديرة في اوربا :

لقد انتشرت فكرة الرهبانية وانشاء الاديرة في كل اوربا . ويعود قسم كبير من الفضل في تأسيس الاديرة الى بعثات تبشيرية رهبانية اتت من ارلندا . ذلك ان ارلندا تحولت الى النصرانية على يد القديس باتريكPatrick في القرن الخامس الميلادي .

وما لبث الرهبان الارلنديون ان عكفوا على دراسة المخطوطات القديمة بحماسة وشغف واهتموا بالاداب الاغريقية بخاصة . كذلك امتاز هؤلاء الرهبان بحماسة مبشريهم ومبعوثيهم في نشر الديانة المسيحية في القارة الاوربية . فقد ارسلوا الراهب الشهير كولومبال ومعه ٢٨ راهباً الى انكلترا لنشر المسيحية بين البريتون . كذلك ذهب نفس الاسقف سنة ٥٨٠ م الى فرنسا حيث اسس اول دير على ارض فرنسية هو دير لوكسيLuxeuil كما أحضر إليه عدة مخطوطات كانت نواة اولية لمكتبة ديرية . وأسس نفس الراهب عدداً من الاديرة في كل من اسكوتلندة وانكلترا وسويسرا والمانيا وحتى شمالي ايطاليا . كذلك أسس عدد من الرهبان البندكتيين دير سان غال في سويسرا ، وهو لايزال قائماً الى اليوم .

ولقد كانت رغبة كولومبال الاساسية هي ان ينسخ كل مخطوط يصل ليده ، سواء كان ذلك بالاستعارة او السرقة او الاستجداء ، وقد اكد كل التأكيد على اهمية الدراسة والنسخ كقسم اساسي من الواجبات الديرية .

ولقد كان القديس اوغسطين اسقف كنتربري اول من اسس ديراً في انكلترا مع مكتبته ،ذلك أن البابا غريغوري أرسل القديس اوغسطين مع أربعين راهباً وتسعة كتب الى انكلترا لنشر المسيحية فيها ، وقد اسس اوغسطين اول دير عند كنتربري اصبح ام المدارس في انكلترا . وقد احضر معه تسعة مخطوطات منها الكتاب المقدس والمزامير والاناجيل وقواعد البندكتيين وقد شكلت هذه الكتب نواة المكتبة الديرية .

وهناك الاسقف بونيفاس الذي رحل الى المانيا ونشر النصرانية فيها واسس عدداً من الاديرة اشهرها دير فولداFulda ، وقد الحقت به مكتبة شهيرة فيما بعد . ولقد ادى تأسيس دير لوكسي في فرنسا الى انشاء دير آخر بمدينة كوربيCorbie الواقعة في مقاطعة بيكاديللي في فرنسا .

وعلى هذا النحو يمكن ايراد امثلة كثيرة جداً عن تزايد عدد الاديرة التي انشئت خلال تلك الفترة دون انقطاع بحيث يمكن وضع خرائط بانساب اديرة طوائف الرهبان المختلفة . وكان كل واحد من هذه الأديرة الفرعية يطبق قواعد مؤسس الرهبة المنتسب اليها ويستلم من (المؤسسة الام) مجموعة من المخطوطات كنواة لمكتبته المستقبلة .

كان بناء الدير يحاط باسوار يقع ضمنها الدير نفسه ومساحة كبيرة من الارض وحول السور خنادق ، وفي السور بوابات وممرات مكشوفة . وهنا كان الرهبان يمشون ويقرأون واجباتهم . وهنا ايضاً كان الرهبان يجلسون على اكشاك تشبه الصناديق فيها دكك خشبية غير مريحة يجلس عليها الرهبان وامامهم مخطوطات يحاولون النسخ منها .

واذا درسنا تطور الكتاب في نفس هذه الفترة وجدنا ان الكتابة تقدمت تقدماً ملحوظاً وذلك بسبب اختيار اللغة اللاتينية وسيلة للتعبير والادب اللاتيني ميداناً خاصاً للدراسة . فقد تطورت الكتابة السريعة التي ظهرت في القرون الاولى

للميلاد وسارت جنباً الى جنب مع الكتابة ذات الحروف الكبيرة وكتابة الحروف المستديرة وشبه المستديرة . ولم تلبث هذه الكتابة ان انتشرت وعم استعمالها وتطورت في اشكال عدة حسب الاماكن التي تطورت فيها . فقد نشأت الكتابة الايطالية وسادت في ايطاليا في القرنين العاشر والحادي عشر وعرفت باسم كتابة Benevent . وظهرت في فرنسا كتابة اسمها الكتابة الميروفنجية ، وظهرت الكتابة القوطية الغربية وذاع استعمالها في اسبانيا حتى القرن الثاني عشر . ولقد قيل ان القديس باتريك علم الرهبان الكلتيين كتابة الحروف الرومانية بانواعها الثلاثة ذات الحروف الكبيرة المربعة والمستديرة وشبه المستديرة . ولقد طور الرهبان الكلتيون (في انكلترا) الخط المستدير توفيراً للوقت وللرق وزادوا في تدويره وتخفيف تربعته . فمثلاً كتبوا E كما يلي ∈ ، كما وانهم ادخلوا في الكتابة حروفاً صغيرة اكثر تدويراً وكتبوا بها كثيراً من المخطوطات الجميلة ، ولعل اشهر مخطوط كتب في انكلترا بهذا الخط المسمى باسمHalf Unicial script هو المسمى باسم كتاب كيلزBook of Kells وهو مخطوط انتجه دير ارلندي حوالي سنة ٨٠٠ م ويوصف انه من اجمل المخطوطات التي ظهرت في العصر الوسيط ان لم يكن اجملها ، وهو الآن محفوظ في كلية الثالوث في دبلنTrinity College . هذا وقد افترض بعض الباحثين ان الخط القوطي الذي ظهر في اوربا في القرن الثاني عشر ، وهو خط ذو حواف عالية مدببة ، هو انعكاس للفن القوطي في البناء الذي ظهر آنذاك ، وهو فن يمتاز ببناء القناطر المدببة والاقواس المدببة . وهو خط من الصعب قراءته وكتابته اصعب من قراءته .

كذلك ذاع في ذلك العصر الاختزال، واستعمل النساخ الاختصارات تسهيلاً لعمل النسخ وتعددت الرموز ، فمثلاً استعملوا المختصرdmsمن اجل كلمةdominusوالمختصرsp من اجل كلمةSpiritus وX من اجلChsistus وهكذا . وقد وجد عدد كبير من رموز الاختزال حتى اضطر القوم الى ايجاد عدد من المعاجم لشرح معاني هذه الرموز .

وكان النسخ يتم في مكان اسمه المنسخ ويتعاطاه الرهبان ، وهناك ناسخ لصلب المخطوط وهناك ناسخ آخر ليكتب عنوان المخطوط . ولقد انتشرت عادة

زخرفة المخطوطات وتزويقها كل الانتشار في اديرة اوربا في العصور الوسطى ، وكانت الزخرفة اول الامر تتجه نحو تزيين وزخرفة الحروف الكبيرة وكتابتها بالاحمر ، ثم تطور الامر الى استعمال المنمنمات في الزخرفة ، وتفنن القوم في هذه الزخرفة واستعملوا في كتابة وزخرفة المخطوطات الفاخرة الذهب والفضة . ومن امثلة المخطوطات الفاخرة ذات الالوان الارجوانية والمكتوبة بحروف من الذهب والفضة المخطوط المعروف باسم المخطوط الفضي المحفوظ الان بمكتبة جامعة أبسالا بالسويد . ويحوي المخطوط ترجمة التوراة التي قام بها الاسقف الفيلاUlfila في القرن الرابع الميلادي ثم نسخت بعد ذلك في ايطاليا في القرن السادس . ولقد اتت عادة التذهيب هذه الى اوربا من بيزنطة حيث حلى القوم هناك مخطوطاتهم بالذهب والفضة ؛ وانتقلت هذه العادة الى اوربا وظلت منتشرة فيها ، مع النفوذ البيزنطي حتى اواخر القرن الحادي عشر الميلادي حيث نرى هذا النفوذ في عدد من المخطوطات الفاخرة لتوراة شارل الاصلع وكتاب مزاميره الموجودين حالياً في المكتبة الاهلية في باريس .

كذلك لابد من ذكر مخطوط له شهرة عالية في هذا المجال ويتمثل فيه فن زخرفة الكتب والمستوى الرفيع الذي وصل اليه هذا الفن في القرن الثامن وهو مخطوط اناجيل لنديسفيرنLindisfarne Gospels وهو معتبر من اجمل المخطوطات التي ظهرت في العصور الوسطى وقد انتجه منسخ دير لنديسفيرن في شمالي انكلترا قبل سنة ٧٠٠ م وهو محفوظ الان في مكتبة المتحف البريطاني .

ولابد من القول ان المزخرف كان راهباً آخر غير الخطاط او الناسخ ، في هذا العصر . كذلك كانت جميع الزخارف اقرب الى الفن الزخرفي منها الى التصوير ، وقد تمركز اغلبها حول الحروف الكبيرة . ولاتزال الوان هذه المخطوطات زاهية حتى ايامنا هذه وكأنها رسمت حديثاً .

ولقد حصلت نهضة في اوربا في اواخر القرن الثامن واوائل القرن التاسع اوجدها وغذاها شارلمان معاصر الرشيد والمأمون . وقد وحد شارلمان في امبراطورية واحدة تحت حكمه قسماً كبيراً من اوربا الغربية وجعل مركزه فرنسا الحالية وتسمى هذه النهضة النهضة الكارولنجية . وعلى الرغم من ان شارلمان لم

يكن عالماً إلا أنه شجع العلماء وحاول تركيز الحياة العقلية حوله ،واستدعى العلماء من كل مكان فتقاطروا أليه وأشهر هؤلاء بول دياكر من ايطاليا والكيون من انكلترا . كان الكيون شخصاً مثقفاً وأهتم بالنواحي التعليمية في بلاط شارلمان وأسس اديرة ومدارس ومكتبات في أوربا الغربية وأصبح المشرف الأعلى على مكتبة القصر التي أسسها شارلمان في قصره في عاصمته آخن . وعندما أصبح الكيون اسقفاً لتور اسس هناك مكتبة شهيرة وألحق بها منسخاً . وأُسس عدد من الاديرة في أرجاء اوربا الغربية وألحق بكل منها منسخ لنسخ الكتب .

ولقد اصلح العلماء حول شارلمان الكتابة اللاتينية وابتكروا ماعرف باسم الكتابة الكارولنجية وهي كتابة صغيرة الحروف تسمى Minuscule واستمر هذا الاسلوب قروناً تكتب به المخطوطات وتأثر به اوائل الطابعين . ولقد اشرف الكيون نفسه على عملية نسخ المخطوطات في المناسخ ، ووجه عناية خاصة وانتباهاً متزايداً للتنقيط والتهجئة واسلوب الكتابة . وقد ظلت طريقته هذه تستخدم نماذج يقتفي آثارها النساخ ويحاولون تقليدها واتباعها وذلك لعدد كبير من الاجيال .

ولقد ظهر فن زخرفي جديد في حقل المخطوطات ، ذلك ان المزخرفين حاولوا مزج التأثيرات القومية المختلفة في هذا الفن مع الفن الكلاسيكي القديم فظهر الفن الزخرفي الجديد الذي هو مزيج من جميع هذه العناصر . وقد تنوعت الزخارف وتعددت من الدوائر المتشابكة والحيوانات الخرافية الى الموضوعات المأخوذة من المملكة النباتية كالازهار والبراعم ، يضاف الى ذلك رسوم تحوي زخارف اغريقية ونباتات شوكية .

ولقد انتشرت هذه المؤثرات الكارولنجية في المانيا فأسس بها عدد من الاديرة الحق بكل واحد منها مكتبة ومنسخ كدير كورفي ودير فولدا الذي يقال انه وجد في منسخه عشرة نساخين يعملون في نسخ الكتب ، ودير راتزبون . . . كذلك انتشرت هذه المؤثرات الكارولنجية في بلاد اسكاندنافيا حيث اسست اديرة كثيرة الحقت بها مكتبات مهمة ومناسخ وانتجت عدداً من المخطوطات التي تدل على هذه التأثيرات ، ولكنها لاتزال فجة غير متزنة وغير ناضجة وغير جميلة .

ولكن هذه النهضة لم تعمر طويلاً اذ لم تلبث ان زالت وتهدمت خلال القرن التاسع بسبب انقسام الامبراطورية على نفسها وبسبب الحروب الاهلية وبسبب صعف الاباطرة وهجوم الفايكينغ عليها مما ادى الى خراب ودمار قسم كبير من الاديرة ومكتباتها ومناسخها .

ولقد اختلف موقف الهيئات الديرية الرهبانية من الكتب والمكتبات ، وتأتي رهبنة البندكتيين على رأس محبي الكتب والثقافة ومشجعيها ، متبعين في ذلك تعاليم وقواعد مؤسس الرهبنة بندكت . كذلك يمكن ذكر طائفة الرهبان الكارثوزيين والسيستريينCarthusians and Cisterians من بين الطوائف التي شجعت الكتب والنسخ واهتمت بالثقافة بشكل عام ، على حين لم تهتم طائفة الفرنسيسكان بالكتب اول تأسيسها اطلاقاً ، ولكنها بدأت تهتم بها وتجمع الكتب ابتداءً من القرن الثالث عشر . وكحكم عام فقد اهتمت جميع هذه الطوائف بالدير واهميته مركزاً للتعلم والتثقف واعترفت باهمية المكتبة والمنسخ الملحقة به ، وذلك على درجات متفاوتة حسب العصور والاوضاع . ولقد ظلت روما مركز توزيع الكتب وذلك في اوائل العصور الوسطى ، ثم تغير الوضع بعد ذلك ونشأت مراكز جديدة وتقهقرت روما الى الخلف .

لقد كان القرنان العاشر والحادي عشر فترة مظلمة سوداء في تاريخ تطور المكتبات والادب في غربي اوربا ، باستثناء بعض البقاع المضيئة في بعض الاماكن كدير كلوني في فرنسا ودير سانت غال في سويسرا . كان هناك اهمال للاداب الكلاسيكية واغفال لها ؛ وكان هناك عدد كبير من الرهبان اميين لايفهمون ولايعرفون قيمة الكتب مما جعل الكتب تتلف ، واغلب الكتب التي نسخت كانت اعمالاً دينية ، وانخفض عدد الكتب في اوربا عما كان عليه في سنة ٩٠٠ مثلاً . ولكن جنوبي ايطاليا كان استثناءً من هذا الحكم بسبب احتكاكه المستمر ببزنطة مما جعل الاداب الاغريقية تنتعش واستمر الاهتمام بالكتب والمكتبات . ولقد تحسنت الشروط والظروف العامةفي اوربا عند اقتراب القرن الثاني عشر ، ولكن مكتبة الكاتدرائية حلت محل مجموعة الكتب الديرية في الاهمية ، وكلتاهما تقلصت اهميتها بعيد ذلك امام مكتبة الجامعة في القسم الثاني من العصور الوسطى .

الدير والمنسخ وتنظيم عملية انتاج الكتب :

اتخذت حياة الكتاب في هذه العصور مظهراً عاماً مشتركاً ، سواء كانت تلك الحياة راقية ناهضة ،كما هي الحال في المانيا وفرنسا ، ام متواضعة كما هي الحال في الأقطار الاسكندنافية .

المنسخ والنساخ :

كانت اغلب الاديرة الكبرى تحوي مكاناً خاصاً للنسخ يسمى المنسخ Scriptorum ، وكان النساخون كلهم من الرهبان والراهبات يجلسون في المنسخ الذي لاتصل اليه ضوضاء العالم الخارجي وتقيد الحياة فيه بالنظام الصارم الذي تتبعه الطائفة الرهبانية . والمنسخ اما قسم من الجناح المخصص للشؤون الدنيوية في الدير ، او غرفة مبنية فوقه وليس فيها تدفئة ولااضاءة صناعية . كانت النوافذ صغيرة وواطئة ، والاثاث بسيط وغير مريح مؤلف من دكك خشبية وحشايا قاسية . وكانت خزائن الكتب بسيطة ، وهناك حوامل للكتب توضع عليها الكتب التي ينسخ منها ، وحامل يوضع عليه المحطوط الذي ينسخ . كذلك كان يخزن بالمنسخ ما نسخ من اجل اعادة نسخه من جديد .

وكان هناك طريقتان للنسخ ؛ ففي بعض الحالات كان يجلس او يقف عدد من النساخ حول عدد من الطاولات ساعة بعد ساعة وهم ينسخون ما يمليه عليهم راهب يقرأ من مخطوط لانتاج عدد من النسخ منه . ولكن الاعم الاغلب ان ينسخ الراهب مايقرأه هو نفسه من المخطوط مباشرة بحيث لاتعمل من المخطوط سوى نسخة واحدة في الوقت نفسه . وكان الناسخ ينفق اشهراً وحتى سنة في انتاج ونسخ جزء واحد بعناية . واذا كان المخطوط يحتاج الى زخرفة ، فانه يرسل بعد الانتهاء من نسخه الى راهب فنان ليزخرفه برسوم زخرفية من اجل الحروف الكبيرة وحول حواف الصفحات ، واذا كانت هذه الزخارف باللون الاحمر فتسمى Rubrications ويسمى المزخرف Rubricator ، وكانت تستعمل الوان اخرى وخاصة الذهب والفضة في زخرفة الاعمال الاهم . وقد وصل فن زخرفة الكتب مستوى عالياً في اواخر العصور الوسطى . ولكن وجد اعمال مهمة جداً

ورائعة جداً زخرفت بشكل انيق كل الاناقة ظهرت في القرنين الثامن والتاسع مثل كتاب كلز واناجيل لنديسفيرن المذكورين آنفاً . ولقد درب بعض الرهبان على الخط الجميل وعلى الزخرفة والتزيين وهم الذين انتجوا اجمل المخطوطات التي لاتزال محفوظة في الغرب . ولقد جذب فن المخطوط الفنانين في ذلك الوقت . كذلك كان يجري ، بعض الاحيان استخدام ناسخين خاصين مدنيين من خارج الدير من اجل بعض المهمات الخاصة . وكان المعتاد اشتغال شباب الرهبان بعملية النسخ ، وان كنا نعرف سلسلة كبيرة من الاساقفة ورجال الكنيسة المتحمسين للنسخ ايضاً ، وكان ، احياناً يشترك عدد من الرهبان في اتمام مخطوط واحد يتقاسمون فصوله .

وكانت عملية النسخ تتم في المنسخ حيث الاضاءة سيئة والمقاعد غير مريحة والجو القارس السيء ، وكان الرهبان يتحملون هذا الوضع السيء ويناضلون من اجل الرؤية في هذا الجو المعتم وامامهم مخطوط يحاولون النسخ منه . لذلك لاعجب ان كتب احد الرهبان المتعبين على هامش احد المخطوطات : آه على كأس من الخمر .

كان يوضع المنسخ بعهدة راهب متعلم هو امين المكتبة واسمه اللاتينيArmarius . لقد كانت واجباته كثيرة ومتنوعة . فقد كان عليه حفظ سجل مضبوط لجميع المخطوطات الموجودة في الخزائن ، وان يحميها من الارضة والتربة والسرقة والتمزق . واذا اريد لمجموعة المخطوطات في الدير ان تنمو وتزيد وجب عندئذٍ على امين المكتبة ان يستعير مخطوطات من اديرة اخرى لنسخها ، وهذا يتطلب منه رحلة طويلة خطرة . كما كان عليه ان يخصص لكل راهب واجبه اليومي وان يحضر المواد التي تتطلبها عملية النسخ وان يوزعها على الرهبان : منها اوراق الرق للنسخ ، ومنها المماحي والحبر بنوعيه الاحمر والاسود ، ومنها الاقلام وهي غالباً من ريش البط والديك الهندي ، ومنها السكاكين للبري والكشط .

وعلى الرغم من ان الحصول على الرق ليس صعباً ، الا ان الكمية المطلوبة منه كانت كبيرة جداً . فقد كان يحتاج الى جلود اكثر من مائتي خروف لكتابة الكتاب المقدس .

ولقد كان من الامور المعروفة ان الراهب العادي لايستطيع ان ينسخ في السنة اكثر من ٤٠٠ صفحة . وكان الناسخ يعتقد انه في كل كلمة يخطها سيحط عنه ذنب وتضاف الى سجله يوم الحساب حسنة .

ولقد كان الكلام والضوضاء ممنوعين كلياً في المنسخ ، ولذا شاع بين النساخ الاتصال بالحركات والاشارات . فاذا كان الناسخ ينسخ عملاً دينياً مقدساً وثارت لديه نقطة يود الاستفسار عليها من امين المكتبة ، فانه يرسم في هذه الحالة علامة الصليب ليجذب انتباهه . واذا احتاج الى استفسار من امين المكتبة اثناء نسخه كتابات وثنية فان عليه ان يحك الناسخ خلف اذنه مثل الكلب لينبه امين المكتبة الى حاجته اليه(ذلك ان المسيحيين كانوا يدعون الوثنيين آنذاك كلاباً) .

وعندما ينتهي المخطوط يضع الناسخ في آخره رمزاً دالاً على توقيعه واسمه ، ويضيف اليه مايسمى الكولوفونColophon الذي قد يحوي شكراً لله لانجاز العمل ، او يصب اللعنات على من يحاول تمزيق او سرقة المخطوط . وكان بعض الرهبان يؤرخ الفراغ من العمل ، وهذا مايسر الباحثين المحدثين ويسهل عملهم . ومع مضي الزمن اصبح الكولوفون صفحة العنوان .

كذلك كان على امين المكتبة ان يراقب عمل النساخ ويصحح اخطاءهم . واذا كانت مهمة جميع الرهبان نسخ صفحة واحدة من مخطوط معين فقد كان امين المكتبة هو الذي يملي النص اللاتيني . كما كان امين المكتبة مسؤولاً عن حفظ النظام في المنسخ اذ كان الصمت المطلق ضرورياً اثناء عملية النسخ . وكان ينظر الى امين المكتبة على اعتبار انه بحاثة متميز .

كانت كتابة المخطوطات باليد مهمة دائمة لاتنتهي بالنسبة للنساخ الديريين . وكانوا ينسخون فقط خلال ساعات النهار المضيئة بمعدل ست ساعات في اليوم . وكان النسخ عملاً شاقاً ، فقد كتب احد الرهبان على هامش مخطوط كان ينسخه(ان النسخ عملية منهكة ، فهي تقوس ظهرك وتقصر بصرك وتؤلم

معدتك وجانبيك) . يضاف الى ذلك عبء اللغة اللاتينية التي لم تكن مألوفة لدى البعض .

ولقد كان الحصول على نسخ من مؤلفات مؤلفين ليسوا احياء يتم باستعارة نسخة معتمدة من مكتبة كبرى واعطائها لاحد الناشرين المعتبرين لكي ينسخها لطالبها بشكل جيد معتبر منقح مصحح . كما وان الحصول على نسخ من اعمال المؤلفين الاحياء كان يواجه بعض الصعوبات على الرغم من ان الناشرين كانوا يفضلون هذا النوع من النشر ولاسيما اذا كان يبشر ببيع كبير . ولم يكن هناك احترام لحق التأليف .

كانت مجموعة الكتب في مكتبات الاديرة والكاتدرائيات قليلة تمثل اعداداً معدودة من المخطوطات لاتتجاوز الثلاثمائة الا نادراً ، واغلبها ذو طابع ديني تعليمي وموضوعة في صندوق او صندوقين مقفلين .

هذا وان مصادر الكتب التي كانت تزود بها مكتبات الاديرة في العصور الوسيطة كانت بالدرجة الاولى ما ينسخه الرهبان انفسهم ، بالاضافة الى ما كان يصل الى تلك المكتبات من هدايا النبلاء والاغنياء والملوك والاباطرة والاساقفة والقسس ممن كانت تخلد ذكراهم من اجل مثل هذه الهدايا في سجل الاهداء المعد خصيصاً لهذا الامر في هذه المكتبات . كما كان يدعى لهم بعد الصلوات .

وقد شوهد هنا وهناك في اواخر العصر المبحوث دلائل تشير الى وجود دعم مباشر لعملية تزويد المكتبة الديرية بالكتب والخدمة المكتبية . فقد كان من المحتمل ان يوقف دير من الاديرة مكتبته مع قسم من المحصول السنوي الذي يرد الى الدير على الخدمة المكتبية وتغذية المكتبة بالمخطوطات . او يتبع المثل الذي فرضه رئيس دير فلوري Fleury الذي فرض ضريبة المكتبة على موظفي ديره وممولية . كذلك كان بامكان كنيسة ما ان تمنح منسخها نسبة من العشر الذي تحصله . وقد استطاع دير سان فيكتور الذي تأسس في باريس قبل سنة ١١٠٠ م ان يؤسس ويطور مكتبته بشكل استثنائي استناداً الى منح قدمتها له الاسرة المالكة الفرنسية . ولقد كان من الواجب مساعدة الكنائس والاديرة التي تعرضت في القرنين التاسع والعاشر لهجمات النورمنديين والفايكينغ والمجر واتلف قسم كبير

من كتبها ودمرت مناسخها وكانت بحاجة ملحة الى المساعدةحتى تعوض ماتلف ودمر واحرق من كتبها . واتبعت عدة طرق لاغناء مكتبات هذه الكنائس وهذه الاديرة بالمخطوطات ؛ منها المثال الذي وضعه رئيس دير كورفي وهو أن على كل مرشح للترفيع إلى درجة أعلى أن يقدم إلى المكتبة هدية هي عبارة عن مخطوط من الرق ، وكان ذلك أواخر القرن الحادي عشر .

كذلك كان هناك تبادل للكتب بين الكنائس والاديرة وبيع وشراء ، نستدل على ذلك مما ذكره ريجينبرت Reginbert الالماني في فهرسه الذي وضعه لمكتبة دير رايخناو Reichnau الالمانية من ان بعض رجال الكنيسة كانوا يبيعون كتب القداس .

طبيعة الكتب التي كانت تنسخ في الاديرة :

كانت التوراة اكثر الكتب التي نسخت ، وقد نسخت مرات ومرات كثيرة جداً حتى حفظها النساخ عن ظهر قلب . وكانت التوراة التي قام بنقلها القديس جيروم من اليونانية الى اللاتينية هي المصدر الرئيسي . وكانت المزامير واجباً محبباً الى الرهبان يقومون بنسخه ، فقد كانوا يستمتعون بنسخ هذا الشعر الجميل الذي يجعلهم يتخلصون ، ولو لفترة قصيرة ، من رتابة النسخ المملة .

وكانت كتب الخدمة والصلوات تنسخ بكميات كبيرة ويعاد نسخها باستمرار ، كذلك كانت تنسخ بكثرة كتب التراتيم والاحتفالات وشروح آباء الكنيسة وتعليقاتهم وسير وحيوات القديسين .

ولقد نسخ كتاب الساعات واعيد نسخه كثيراً ، وتمتاز مخطوطاته بتزييناتها والوانها الزاهية . وقد يحصل للمرء انطباع ان النساخ كانوا ينسخون فقط كتباً دينية . وهذا صحيح اول الامر . ولكن مع مضي الزمن احتاج الباحثون الى كتب اخرى غير دينية مثل كتب نحو اللغة اللاتينية المسمى دوناتس الذي اشتد عليه الطلب . كما ونسخت بعض الكتب العلمانية كان القوم بحاجة اليها وذلك للقيام بدراسة موازنة بينها وبين التعاليم المسيحية .

فن التجليد :

لقد وصل فن التجليد الذي كان يتم في الاديرة الى قريب من الكمال . فقد كانت المخطوطات ترسل ، بعد الفراغ من نسخها ، الى احد الرهبان واسمه المجلدLigator وهو مختص بتجليد المخطوطات . على ان اقدم انواع التجليد كانت تختلف اختلافاً كبيراً عما نفهمه من معنى هذه الكلمة في وقتنا الحاضر ؛ اذ كان التجليد اقرب الى ميدان صياغة الذهب والنحت على العاج منه الى التجليد العادي المعروف .

ففي اوائل العصور الوسيطة استخدم المجلدون الواح الشمع التي استخدمها الرومان سابقاً في تدوين ملاحظات قصيرة عليها ، والتي تطورت بعد ذلك فاصبحت تصنع من العاج ، وذلك في تجليد بعض مخطوطات الكنيسة .

كذلك استخدم المجلدون التجليد على طريقة صياغة الذهب وذلك بتزيين الواح خشبية بصفائح رقيقة من الذهب او العاج المنحوت او الفضة ومطعمة في نفس الوقت بالاحجار الكريمة واللآلىء . وقد صنعت هذه التجليدات خاصة للكتب الدينية التي كانت تستعمل وقت الصلاة . اما النقوش البارزة فغالباً ماكانت مستعارة من الصور المرسومة داخل المخطوط نفسه ، او تمثل حكايات من قصص التوراة او الانجيل . . .

ولقد تعددت التجليدات وانواعها على طريقة صياغة الذهب : فهناك التجليدات البيزنطية ذات الميناء المميزة لها ، وهناك التجليدات الارلندية ذات النقوش الفضية والبرونزية لصور الحيوانات الخرافية . وهناك تجليدات كارولنجية جلدت بالعاج وتحمل الطابع الكارولنجي الذي يمتاز بنقوش اوراق الشجر .

وهناك تجليدات مصنوعة من الجلد ، وقد استخدم الجلد لتجليد المخطوطات العادية واستمر في الاستعمال حتى اصبحت له الصدارة في اواخر العصور الوسطى وبرز التجليد على طريقة صياغة الذهب ، وكانت تستعمل فيه جلود العجول او البقر ، وكان لونه بنياً قاتماً محلى بزخارف منوعة الشكل . كذلك استخدم المجلدون طريقة الحفر على الجلد من اجل التجليد . وطريقة ذلك ان

يرطب الجلد بالماء ثم يرسم انموذج عليه ، وبعد ذلك يحفر بسكين ويوسع ، او ينقش بآلة غير حادة ، ثم يفرغ باقي الجلد المحيط بالصور حتى يبدو الزخرف بارزاً بالنسبة الى باقي المساحة الجلدية ، وقد ازدهر هذا الفن اكثر مايكون في المانيا .

كذلك شاعت طريقة اسمها الطبع البارد . فقد شاعت التجليدات المطبوعة على البارد اكثر مما شاعت التجليدات المصنوعة من الجلد المحفور ، وهي لاتتطلب من البراعة مايتطلبه الحفر على الجلد . وكانت الادوات التي يحفر بها الجلد ساخنة بحيث يظهر الزخرف بارزاً . ولما كانت هذه الطريقة لاتشمل اي تذهيب فقد عرفت باسم الطبع على البارد ، وكانت تضم سلسلة من الاطارات المتشابكة والمكونة من اشكال صغيرة مربعة او مثلثة او مستديرة او شكل قلب . وكانت الزوايا تزود بنتوءات نحاسية مثبتة بمسامير ، كما كان الكتاب يحكم اغلاقه باقفال معدنية . ولايجب ، طبعاً ، ان نتصور ان التجليدات التي صنعت في الاديرة كانت كلها مزخرفة بنفس المستوى الفني الرفيع الذي ذكرناه آنفاً ، فكثير منها كان بسيطاً كل البساطة ولم يكن لدى الرهبان المجلدين ذلك الروح الفني الرفيع . ومع ذلك وجد بينهم بعضٌ كانت لديهم روح فنية وقدرة يدوية تدعو الى الاعجاب .

ووجد انواع اخرى من التجليدات في العصور الوسطى ، ولعل اهمها تلك التي استخدم القماش في تجليدها وزخرفتها .

ولقد كانت الكتب غالية الثمن جداً في القرون الوسطى وتعتبر ترفاً لايحصل عليه الا علية القوم . فقد قدر ان ثمن متوسط الجزء من اي كتاب في القرن الثاني عشر ماقيمته بعملة اليوم مايساوي ٢٠٠ دولاراً امركياً . ولقد كان ثمن كتاب واحد من كتب الاحتفالات الدينية في القرن العاشر ٢٠٠ خروف وثلاث حزم من المحصول . بينما كان ثمن نسخة كاملة من الكتاب المقدس بيتاً وساحة امامه . ويجب ان نلاحظ ان هذه الاثمان التي مر ذكرها هي ، على الغالب ، اثمان كتب مزخرفة بشكل فني جيد ومجلدة تجليداً أنيقاً . ولكن تبقى الحقيقة وهي ان ثمن اي كتاب كان مرتفعاً . كذلك كانت درجة دقة محتويات المخطوط في تلك

العصور من العناصر الاساسية في ثمنه . فكتاب نسخ بشكل دقيق وقوبل على عدد كبير من النسخ او عرف ان ناسخه باحث دقيق مشهور ومعروف بدقته في النسخ ثمنه ولاشك اعلى بكثير من غيره حيث يمكن استخدام هذا المخطوط كمصدر اساسي موثوق ويمكن ان ينسخ عنه عدد كبير من النسخ ، وقي تاريخ الكتب في اوربا الغربية يجب ان يخصص مكان الصدارة للرهبان ومناسخهم الذين نسخوا واشتغلوا في المناسخ ، وعلى الرغم من ان عملهم لايوازن بما عليه عملية انتاج الكتب في القرن العشرين مثلاً ، الا انهم ، في نسخهم وحفظهم الادب المكتوب وتوسعتهم دائرته ، اوجدوا جسراً من العصور القديمة المظلمة الى العصور الحديثة والحضارة الحديثة .

٣ـ الكتاب والكتابة في اوربا الغربية في اواخر العصور الوسطى حتى حوالي سنة ١٥٠٠ م :

شهدت القرون المتأخرة من العصور الوسطى نهضة بدأت في اوربا أثارها احتكاك الاوربيين بالمسلمين في الحروب الصليبية (في بلاد الشام ومصر) وفي الاندلس ، فشاهدنا في هذه الفترة ولادة الجامعات الاوربية وبدء دخول الورق الى اوربا واستعماله فيها ، كما شاهد هذا العصر ازدهار المدن التجاري وتمركز الحياة في هذه المدن وظهور طبقة وسطى غنية بدأت تنافس الملوك والحكام والاقطاعيين ، كما شاهدت هذه الفترة ظهور الدول الوطنية في اوربا كفرنسا وانكلترا ، وشاهدت هذه القرون عدة محاولات لاصلاح الكنيسة وعدة ثورات ضدها ، وانتهت هذه العصور عند حدوث تغييرات جذرية في المجتمع الاوربي : ذلك ان الطباعة اخترعت في اواخر هذه العصور فاحدثت انقلاباً فكرياً هائلاً ، وانحطت الحياة الديرية وفسدت الكنيسة مما أدى إلى قيام لوثر في المانيا ضد الكنيسة الكاثوليكية وقاد هذا إلى الاصلاح الديني المعاكس . وولدت في نهاية هذا
العصر الدول الوطنية الكبرى في غربي اوربا كفرنسا واسبانيا وانكلترا وهولندا ؛ ووجد حكام متنورون شجعوا الاداب والفنون والعلوم واذاعوها وخاصة في ايطاليا

وفرنسا وانكلترا ، وولد الفكر العلمي لاول مرة في غربي اوربا واحييت الاداب الكلاسيكية ودرست في ارجاء اوربا مما ادى الى ولادة عصر النهضة في اوربا كلها وقاد ذلك ايضاً الى زوال عقلية القرون الوسطى والى افتتاح العصور الحديثة بما تحمل من مميزات وبما تحفل به من مساوىء . ولقد اثر هذا التطور الهائل على الكتب والمكتبات في اوربا ابان هذه الفترة بشكل ملموس وواضح كل الوضوح .

ولقد ازدهرت في هذا العصر الكاتدرائيات ومكتباتها ، والكاتدرائية كانت مركزاً لادارة ومراقبة عدد من الكنائس الصغيرة تابعة لها . وكانت تحوي اغلب الكاتدرائيات مكتبات مهمة لانها كانت مركزاً تعليمياً للرهبان . وكانت الكاتدرائيات توجد في المدن المهمة ولذلك كانت مكتباتها ميسورة للطلاب اكثر من الاديرة . ولقد اصبحت مكتبة الكاتدرائية مع مرور الزمن اهم واكبر واكثر تنظيماً من مكتبة الدير . وكان يوجد في الكاتدرائيات المهمة ثلاث مجموعات من الكتب : الاولى المجموعة الرئيسية وتحوي هذه اغلب الكتب الدينية ، وكتب الخدمة ، والمكتبة الملحقة بمدرسة الكاتدرائية وتحوي هذه اغلب الكتب العلمانية الموجودة في مكتبة الكاتدرائية .

كانت محتويات هذه المكتبات دينية في الاعم الاغلب . وعندما زاد عدد الكتب في المكتبات الدينية بعد القرن الثاني عشر بقي الاهتمام بالدين غالباً ، ولكن زاد عدد الكتب الكلاسيكية كماً وكيفاً ، وكذلك زاد عدد الكتب الدنيوية ومؤلفات رجال القرون الوسطى وحتى وجد في كثير من المكتبات كتب علمية وشعراء وادب وتمثيليات لكتاب محدثين . وكانت اغلب الكتب مكتوبة على رقوق وجلود في هيئة الكتاب الكراس .

كذلك تغيرت الشروط الفيزيائية للمكتبات في القرنين الرابع عشر والخامس عشر . فقد زاد عدد الكتب في اغلب المكتبات الكاتدرائية من بضع مئات الى بضعة الاف وزالت صناديق الكتب لتحل محلها خزائن الكتب ومن ثم غرف صغيرة خاصة بالكتب . ولقد رتبت الكتب في هذه الغرف الضيقة الطويلة على ارفف الخزائن بشكل يسمح لها ان تتعرض لاكبر كمية من النور . ولقد سلسلت الكتب المصدرية والكتب المرجعية والكتب المهمة الممنوع اعارتها اعارة خارجية

بالسلاسل . وكانت السلسلة مثبتة من ناحية بالحافة العليا او السفلى لغلاف الكتاب ، كما كانت تثبت من الناحية الثانية لها بقضيب حديدي مثبت في اعلى خزانة الكتب . وفيما عدا ذلك ، كان يوجد في هذه المكتبات جزء مباح للتداول كانت توضع به المجلدات والكتب لاعارتها للرهبان . وكانت الكتب توضع على الارفف بحيث يكون ظهرها الى الحائط ، وكان عنوان الكتاب يدون بالحبر على قطعة صغيرة من الجلد تثبت على ظاهر الغلاف الخارجي او على الحافة العليا حتى يمكن رؤيته .

ولقد وجد عدد من الانظمة الرهبانية اهتمت بالدير ومكتبته ومنسخه وكان البندكتيون اكثر من ابدى نشاطاً في هذا المجال . واقدم مكتباتهم الديرية في القرن الثاني عشر هي مكتبة مونت كاسينوMont Cassinoفي ايطاليا ، وازدهر في فرنسا دير القديس بندكت المقام على نهر اللوار والذي كان موضوعاً تحت اشراف الرهبان الكلونيين .

اما دير فلوري Fleury ومكتبته فنحن مدينون بوثيقة حفظت لنا هي عبارة عن امر اصدره رئيس الدير ماركاريوس في سنة ١١٤٦ م يفرض بموجبه ضريبة سنوية قدرها مائتان وثمانون ديناراً ذهبياً يدفعها اعضاء الدير والجهات التابعة له وتخصص للمحافظة على المكتبة وتغذيتها بالكتب ، وظلت هذه اللائحة سارية المفعول حتى سنة ١٥٦٢ م .

ولكن نظام الرهبنات بدأ في الاضمحلال في اوربا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، وركن الرهبان انفسهم الى الكسل والراحة وعاش كثير منهم عيشة مترفة ، كما اهملوا الثقافة والتعلم والاطلاع التي هي اخص واجباتهم فانتشرت الامية بينهم ، وادى ذلك بالتالي الى اهمال المناسخ والمكتبات والكتب في الاديرة . فقد ادى جهل الرهبان واهمالهم الى ان انخفض عدد الكتب في مكتبة دير سان امرمام بمدينة راتزبون الى النصف وذلك في اواسط القرن الرابع عشر عما كانت عليه في القرن العاشر ، كما هبط مستوى دير مورباخ الى الغاية في القرن الثالث عشر حتى ان رهبانه لم يعودوا يعرفون الكتابة نفسها .

ولكن من حسن حظ الانسانية فان نهاية مكتبات الاديرة وتدمير محتوياتها حدث بعيد اختراع الطباعة ،ولذلك يمكن القول ان القسم الاعظم من محتويات هذه المكتبات المهمة كان قد تم طبعه سابقاً ، ومافقد من هذا القسم الاكثر اهمية يعتبر قليلاً للغاية .

ولقد نشأ ونما في القسم الاخير من العصور الوسطى الجامعات ، وظهور الجامعات نتيجة حتمية من نتائج الاحتكاك المتصل المتواصل بين المسلمين والاوربيين وبشكل خاص في الاندلس ، وكذلك هو نتيجة من نتائج نهوض المدن وتمركز الحياة فيها وظهور طبقة غنية متوسطة اغتنت من الاشتغال بالتجارة . ولقد شعر القوم بحاجة الى شيء من البحث والدرس والى الخروج من دائرة التعليم الديري والكنسي ، وكانت الجامعات ومكتباتها هي الاماكن التي جرى بها شيء من البحث والدرس في تلك العصور المظلمة .

ولعل فكرة انشاء الجامعات اتت الى الغرب اثر احتكاك الاوربيين بالمسلمين في الاندلس حيث كان التعليم الجامعي هناك في اوجه . وقد وجدت اولى الجامعات الاوربية في ايطاليا ثم انتقلت الى فرنسا ثم الى انكلترا وسائر ارجاء اوربا الغربية ،ولم تطل سنة ١٣٠٠م حتى أصبح عدد الجامعات الاوربية المعترف بها حوالي ست عشرة جامعة .

لم يكن لهذه الجامعات مكتبات اطلاقاً لفترة طويلة من الزمن ، وانما كان بعض الاساتذة يمتلك لنفسه مجموعة صغيرة من الكتب ، وكان الطلاب ينسخون المحاضرات او يستأجرون من ينسخها لهم ، ولذلك كثر بائعو الكتب حول الجامعات واحتشدوا حولها وخصوصاً الشهيرة منها مثل بادوا وباريس وبولونيا واكسفورد ، وازدهرت تجارة الكتب ـ بيعاً ونسخاً وتأجيراً ـ واسس تجار الكتب نقابات كبرى لهم . كانت الكتب المدرسية الجامعية ينسخها الكتاب وتؤجر للطلاب بالصفحة . كانت الكتب غالية الثمن . ففي فرنسا كان ثمن صفحة واحدة من كتاب يساوي كمية لابأس بها من القمح .

ولقد اثرت اوائل الجامعات مكتباتها عن طريق الهبات والمنح ، على حين اثرت مكتبات الاديرة محتوياتها عن طريق النسخ . وهناك اخبار كثيرة عن ملوك

وحكام وامراء واساقفة وتجار منحوا كتبهم الى مكتبات الجامعات . كما كان كثير من الملوك والحكام يوقفون الاوقاف الدارّة على الجامعات لشراء كتب او لدفع رواتب من يقومون بخدمة المكتبة . ومع ذلك ظلت اعداد الكتب في المكتبات الجامعية قليلة ـ بضعة مئات من الكتب ـ ولم ترتفع الارقام الى الالوف الا بعد اختراع الطباعة وانتشار الكتب المطبوعة .

كذلك شابهت الظروف الفيزيائية للمكتبات الجامعية مثيلاتها في مكتبات الاديرة . فقد كانت الكتب توضع في الصناديق في كلا النوعين من المكتبات ، ولكن هذه الكتب اخرجت بعد القرن الثالث عشر من الصناديق ووضعت على الخزائن ذات الرفوف الشبيهة بالطاولات اغلبها مسلسل ، ولكن السلسلة طويلة تسمح بنقل الكتاب الى طاولة منخفضة لاستعماله . كذلك كانت الكتب كلها مكتوبة على الرق وبشكل الكتاب الكراس .

ازدهار متاجر الكتب :

هيأ انشاء الجامعات وازدحام المدن الرئيسية بالطلاب فرصة لقيام تجارة نشطة في الكتب لم يكن من الممكن ان تحدث في العصر الوسيط لولا هذه الجامعات .

والواقع ان نقابة بأسرها من ذوي الامتيازات المشتغلين بصناعة الكتاب قد ارتبطت بالجامعات ، نذكر منهم طبقة النساخ والمزخرفين وصناع الرق والمجلدين ، ثم تجار الكتب انفسهم الذين كانوا يدعون باللاتينية باسمStationari . ومن هنا اتت الكلمة الانكليزيةStationer والتي تطلق حتى الآن على تاجر الكتب او بائع الكتب والورق والدفاتر وماشابه ، وكلمةStationary تدل على مكان بيع هذه المواد . ولقد راقبت الجامعات تجار الكتب وصناعها مراقبة دقيقة وكان الجميع خاضعين لنظام صارم ودقيق . وقد تعهد تجار الكتب مثلاً ان يزودوا متاجرهم بالطبعات الصحيحة من الكتب التعليمية والترجمات الدقيقة من لغة الى لغة . وكانت تفرض غرامات باهظة على مخالفي التعليمات . وكانت هذه الكتب تعار الى الطلاب لقاء رسم محدد ليقوموا هم بانفسهم بنسخها .

ولم يكن لتجار الكتب حق بيع الكتب الا بالعمولة ، ولم تكن ارباحهم منها تزيد على نسبة مئوية معينة . وعلى الرغم من ان نشاط هذه التجارة كان لايزال محدوداً ومقيداً في ذلك الوقت ، الا انه كان نشاطاً مربحاً اذا حكمنا بعدد المتاجر التي انشئت الى جوار الجامعات الجديدة وخاصة جامعة باريس .

ومع هذا فقد كان الشخص الواحد ، لكي يزيد دخله ، يعمل خطاطاً وناسخاً وتاجر كتب في نفس الوقت ، او ان يشتغل مجلداً وتاجر كتب ايضاً وهكذا .

ولدينا لوائح خاصة بمتاجر الكتب ترجع الى عام ١٢٥٩ في مدينة بولونيا ، ولدينا لوائح خاصة بمتاجر الكتب في باريس تاريخها على التوالي ١٢٧٥ م و ١٣٢٣ م . ولقد اصدرت جامعة باريس سنة ١٣٤٢ م لائحة اشد صرامة . وكان تجار الكتب في باريس يشتركون بعلم شفيعهم سان جان بورت لاتين في المواكب مع سائر طوائف الهيئة الجامعية الاخرى ، مما يدل على التقدير الذي كان يلقاه تجار الكتب آنذاك .

ولقد حوت لوائح الجامعات الالمانية نصوصاً خاصة بدور الكتب التجارية والمتاجر ، وان بدا عدم قيامها بدور هام يماثل الدور الذي قامت به نظائرها في كل من فرنسا وايطاليا . ويبدو ان ذلك راجع الى حد ما ، الى ان طلابها كانوا غالباً مايكتبون كتبهم التعليمية بانفسهم ، اذ يمليها عليهم اساتذتهم ، كما هو الحال في جامعات فينا وبراغ .

ولقد انتشرت صناعة الكتب وتجارتها في عدد من المدن المهمة واصبحت العناوين الجديدة معروفة بسرعة في اماكن بعيدة عن مكان نسخ العمل الاصلي . ففي باريس على الاقل ، كان بامكان المرء ان يشتري الكتب من الشارع . وكان هناك نسخ معدة للايجار يستأجرها الطلاب غير القادرين على دفع ثمن الكتب . ولابد انه حدث في اوائل القرن الثالث عشر ضغط كبير على مكتبات الجامعات حتى تغير طريقتها في اعارة الكتب وان تعيرها للطلاب الفقراء المتزايدين . فقد اوصى المجلس البلدي في باريس سنة ١٢١٢ م بالغاء اللعنات التي تصب على الاشخاص الذين يخرجون الكتب من مكتبة دير او كنيسة . واصبحت اعارة

الكتب الى الطلاب الفقراء من اعمال الخير الاساسية .

ولقد استيقظ الاهتمام بالكتب والتراث الكلاسيكي في ايطاليا على اسس جديدة هو مايسمى بالحركة الانسانية ، وهي بداية عصر النهضة التي ترافقت مع نهاية العصور الوسيطة . فقد امتازت هذه النهضة بمحاولة احياء التراث الكلاسيكي ومحاولة درسه وفهمه . ولقد كان الرهبان يدرسون القدماء في المعابد ، ولكن دراستهم هذه كانت مجرد وسيلة لتعلم اللغات القديمة ، اي انها كانت شيئاً ثانوياً وعاملاً مساعداً ، على حين كان الانسانيون يدرسون هذه المؤلفات باعتبارها غاية في حد ذاتها ، وذلك للافادة من فنها وفلسفتها ونظرتها للحياة .

وقد اثارت هذه الحركة اهتماماً بالغاً وحماساً منقطع النظير بين المثقفين وتعصب لها كثير من المؤلفين وجدوا في البحث والدرس والاستطلاع والرجوع الى مصادر المؤلفين القدماء الاصلية واهملوا الترجمات السطحية والتعليقات والشروح المختلفة . ولذا وجب الاعتراف بفضل هؤلاء الذين احيوا المؤلفات الكلاسيكية واهتموا بها لانهم اسلموها للاجيال القادمة سليمة حية متطورة .

هذا وان اول من حمل لواء احياء التراث الكلاسيكي في اوربا كلها ، وبالتالي في ايطاليا نفسها المؤلف الايطالي المشهور والشاعر المعروف فرانسوا بترارك ١٣٠٤ ـ ١٣٧٤ م . وهو يسمى باسم (أبي الحركة الانسانية) و (اول انسان حديث) . ولقب بحق ب (أبي هواية الكتب الحديثة) . ولكن حبه للكتب واعجابنا به يجب الا ينسينا عالمين آخرين سبقاه في الزمن ودافعا عن الكتب دفاعاً حاراً مما كان له ، تأثير على بترارك وجعله ينحو هذا المنحى . احد هذين الشخصين هو ريشارد دو فورنيفالRichard de Fournival مستشار مدينة اميان في فرنسا وقد الف كتابهBiblionomia في القرن الثالث عشر . وقد استعمل الخيال من اجل وصف الكتاب ووصف الكتاب انه(حديقة الادب) حيث صفت في هذه الحديقة عدة مناضد غطيت بمخطوطات في مختلف الموضوعات ، وعلى الرغم من ان الموضوع المحبب له والاكثر وجوداً في بستانه هو الفلسفة ، الا انه وجد في هذا البستان عدد كبير من الكتب في الطب والقانون والالهيات . وقد بدت له باريس حديقة غناء لغناها بالكتب والمخطوطات .

اما الشخص الثاني والاكثر اهمية في هذا المضمار فهو ريشارد دو بيريRichard de Bury الاسقف الانكليزي الذي عاش بين سنتي ١٢٨٧ و ١٣٤٥ م . كانت ثورة هذا الاسقف على اضمحلال الثقافة الفكرية وعدم احترام الكتب اقوى من ثورة غيره . كان هذا الاسقف ذا حظوة كبيرة لدى الملك ادوار الثالث ملك انكلترا آنذاك حتى صار معلمه الخاص ، كما بلغ اعلى المناصب في الكنيسة وفي الدولة ايضاً الى ان اصبح رئيس الديوان الخاص واسقف مدينة دورهامDurham . كما وخدم ادوار الثالث سفيراً في روما . وبوصفه اسقفاً تلقى من الاديرة الانكليزية كثيراً من المخطوطات ، واضاف الكثير من الكتب الى مجموعة كتبه حتى جمع مجموعة ضخمة ملأت بيته بالكتب على رحبه ، ولم يعرف مصير كتبه ومات بدون عقب وسرق خدامه جميع ممتلكاته . اولع هذا الاسقف منذ صغره بالكتب وقد هيأت رحلاته الدبلوماسية باوربا فرصاً شتى لارضاء هواياته في جمع الكتب .

خلد هذا الاسقف اسمه بكتاب الفه وهو في سن النضج عنوانهPhilobiblion او صديق الكتاب . وقد ظهر الكتاب اول ما ظهر سنة ١٤٧٣ م ثم اعيد نشره عدة مرات ، واخيراً نقل الى الالمانية سنة ١٩١٢ م مما يثبت حيوية هذا الكتاب القديم واهميته . كان دوبيري محباً للكتب احاط نفسه بالكتاب والمجلدين والمزخرفين ، وكان ينصح الرهبان ان يفتحوا خزائن كتبهم وينفضوا الغبار عنها ويطردوا الفئران منها ، وكان يطلب الى النساخ ان ينسخوا له الكتب التي لم يتمكن من شرائها . وقد عبر الاسقف عن حبه للكتب باسلوب قوي شائق ، ولهذا اتى كتابه هذا نشيداً في مدح الكتاب والدفاع عنه ، فضلاً عن لومه الساخر لمن لايجلون الكتب . يضاف الى ذلك ماقصه المؤلف عن كيفية جمعه كتبه . وهو بهذا يعطينا لمحة في هواية الكتب . وقد اقام في بعض فصول كتابه من الكتب ممثلاً للاتهام ضد (طائفة الرهبان المنحلة) حسب تعبيره ، وان خص باللوم تلاميذ المدارس الديرية بالذات قائلاً : (قد يحدث ان تشاهد احد هؤلاء الشباب ـ المغترين بانفسهم ـ منحنياً فوق الكتاب الذي يدرسه ، وبرد الشتاء القارس قد أسال أنفه دون ان يفكر في التمخط قبل ابتلال الكتاب الموضوع امامه

بما يسيل عليه من افرازات انفه باستمرار . . . كان اولى به ان يضع امامه مائدة اسكافي يعمل عليها بدلاً من الكتاب ؛ واظافره سوداء كالقطران مليئة ببالاوساخ العفنة . وكان التلميذ الراهب يضع بهذه الاظافر علامات على الفقرات التي تعجبه من الكتاب ، حتى لتجده يزرع في كتابه بعض عيدان القش كي تذكره بما لايمكنه ان يذكره هو نفسه . ونظراً لعدم احتواء الكتاب على معدة تمكنه من هضم هذا القش ، فضلاً عن عدم وجود من يزيله كان الكتاب يتورم وينتفخ الى حد يستحيل معه اعادة اغلاقه ، حتى يؤول امره في النهاية الى نسيانه وتعفنه . ولم يكن يهم الانسان ان يأكل جبناً او فاكهة على الكتاب المفتوح ، اوان يحمل فوقه الكوب الى شفتيه ، ومالم يكن لديه مخلاة تحت يده فانه كان يترك بقايا طعامه تتساقط على كتابه) .

هذه هي الصورة القاتمة لحال الكتب في القرن الرابع عشر في اديرة انكلترا . وعلى الرغم من ان من المحتمل ان يكون حب هذا الاسقف للكتاب دفعه لبعض المبالغة في وضعه ، الا ان الصورة كانت في مجملها صحيحة الى حد كبير .

احب بترارك الكتب منذ نعومة اظفاره وتحمس لها الى درجة انه اشترى ونسخ خلال رحلاته العديدة كل ما وقع تحت يده من كتب . وكان قصده فعلاً من رحلاته في بلجيكا والاراضي الواطئة منذ سنة ١٣٢٩ م هو دراسة الكتب حيث كان له حظ العثور مراراً على نصوص كانت لم تزل مجهولة حتى ذلك العهد ، منها رسائل شيشرون الروماني الموجهة الى اتيكوس . كما ارسل له اصدقاؤه بفرنسا والمانيا وانكلترا كتباً كثيرة .

ولقد ازدهرت حركة جلبت المخطوطات من الشرق في مطلع القرن الخامس عشر فما بعد واعتاد قباطنة سفن البندقية وجنوى وفلورنسا أن يشحنوا سفنهم العائدة من موانىء الشرق بمخطوطات اشتروها هناك ليبيعوها في ايطاليا واعتبروها تجارة رابحة . فقد عاد غارينو من فيرونا من رحلة بحرية الى الشرق سنة ١٤٠٨ م وهو يحمل معه خمسين مخطوطاً يونانياً تمكن من بيعها فوراً . كما وأن جامع الكتب الصقلي جيوفاني اوريسبا احضر من الشرق أكثر من مائتي مخطوط

يوناني وذلك في سنة واحدة هي سنة ١٤٣٣ م ووجد بينها نسخ من كتب يوريبيديس وسفوكليس وتوكوديديس . كذلك اشترى فرانسيسكو فيليلغو من القسطنطينية سنة ١٤٢٠ م حوالي أربعين مخطوطاً يونانياً ، وكثير منها كان مجهولاً كل الجهل في الغرب الاوربي . كما وأن عدداً من التجار والبحارة والباحثين احضروا كتباً مؤلفة من اللغة العبرانية وجدوا من يشتريها منهم فوراً .

ومما يجدر الاشارة اليه أن القسم الأكبر من عملية الجمع هذه تمت على يد أفراد لا على يد الكنائس أو الجامعات أو المؤسسات الحكومية . وقد كان كثير منهم تجاراً أو اشخاصاً عاديين ، ولكن القسم الأكبر من جامعي المخطوطات هم امراء ايطاليا وحكامها ووكلاؤهم . ولقد وجد اشخاص تخصصوا في فن اكتشاف المخطوطات والحصول عليها وجمعها ثم بيعها بعد ذلك . فقد حصل جانوس لاسكاريس (١٤٥٠ ـ ١٥٣٥) على عدد كبير من المخطوطات من الشرق وذلك لحساب ملك فرنسا لويس الثاني عشر أولاً ، ومن ثم لحساب اسرة مديتشي في ايطاليا . ولقد اتى كثير من هذه المخطوطات من أديرة بلاد اليونان كدير آتوس وغيره من الأديرة الشهيرة في البر اليوناني والجزر اليونانية . كذلك اشتهر بوجيو براكشيوليني (١٣٨٠ ـ ١٤٥٩ م) انه جامع كتب ومخطوطات لحسابه الخاص . وقد عرف انه اكتشف عدداً من المخطوطات المجهولة في اوربا وفي اديرتها . وهو شهير في انه اكتشف بعض المؤلفات الضائعة لكل من لوكريشيوسي وكينتيليانQuintilian ولعل اسرة مديتشي التي حكمت في ايطاليا ابان القرن الخامس عشر كانت اكثر الاسر تشجيعاً للفن والادب والمكتبات . فقد تركزت الحياة الادبية والفنية في ايطاليا خلال تلك الفترة في البندقية وفلورنسا . وكان لفلورنسا خاصة ـ مركز اسرة آل مديتشي ومقر حكمها ـ فضل كبير في نجاح حركة النهضة الحديثة ، وهذا لايعني أن بقية الحكام والامراء لم يشجعوا الاداب والكتب والمكتبات ، بل العكس فقد شاهد العصر نشاطاً واسعاً في هذا المضمار . ولكن كان لآل مديتشي فضل السبق ، فقد استأجر كوزيمو دي مديتشي (١٣٨٩ ـ ١٤٦٤ م) فاسباسيانو ليجمع له الكتب ، وقد استخدم فاسباسيانو هذا خمسة واربعين نساخاً ظلوا ينسخون له الكتب طيلة اثنين وعشرين شهراً وانتجوا حوالي

٢٠٠ مخطوط ، كلها مزخرفة ومجلدة تجليداً أنيقاً ، وكان ذلك لحساب كوزيمو ومكتبته الشهيرة .

ولقد نشأت في اوربا خلال القرن الخامس عشر بخاصة ، حركة ضخمة تهدف للكشف عن المخطوطات المدفونة في الاديرة أو الموجودة في بلاد اليونان والقسطنطينية . وقد هيأ عقد المجامع المقدسة بمدينتي كونستانس وبازل (في سويسرا) فرصة نادرة لمن اشتركوا فيها لزيارة مكتبات الاديرة المجاورة وكان اشدهم حماساً كاتب السر البابوي بوجي براكشيو ليني الذي مر ذكره سابقاً ، وقد اكتشف عدداً من الكتب النادرة المجهولة ، وذلك في دير سان غال وفي اديرة المانيا الجنوبية . كذلك اشتهر الكردينال بيكولوميني الذي صار فيما بعد بابا باسم بيوس الثاني بجمعه للمخطوطات ولاسيما مصادر التاريخ الالماني مما جعله يكتشف عدداً من المخطوطات المجهولة ككتاب تاريخ القوط لمؤلفه جورنا نديز .

وقد اوفدت اسرة مديتشي السفراء لشراء المخطوطات من مختلف البقاع ، كما عاش في فلورنسا نفسها طبقة كبيرة من النساخين والرسامين كانوا في خدمة الحكام ، ووجد بها كبار تجار المخطوطات وكان زعيمهم فاسباسيانو المار ذكره .

ولقد ازدهرت في القرون الاخيرة من هذا العصر الطبقة الوسطى في اوربا واثرت وحاولت تقليد النبلاء ورجال الدين . ونحن نعلم ان الكتب كانت قليلة الانتشار في العصور الوسطى وغالية الثمن بحيث لايستطيع شراءها الا الملوك والامراء والاقطاعيون ورجال الدين . ولقد كانت القراءة قاصرة على الطبقات العليا اكثر مما كان عليه الحال في روما القديمة ، وساعد على صعوبة مزاولة القراءة غلاء ثمن الكتب في ذلك الزمن اذ استمر ثمن الرق في الصعود . فقد دفعت كونتيسة أنجو في القرن العاشر في نسخ كتاب واحد من كتب العظات مائتي خروف وثلاثة امداد من القمح وبضعة جلود من جلد السمور . كما بيع كتاب الصلوات في مجلدين لقاء مبلغ مائتي فرنك من الذهب اواخر القرن الرابع عشر .

ولقد ترافق ازدهار الطبقة الوسطى وتعاصر مع اواخر العصور الوسطى ومطالع النهضة في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، وبدأت تتعلم وتتطلع لجمع الكتب وانشاء مكتبات خاصة بها . ولقد صاحب نهوض الطبقة الوسطى

تطور في مهنة التجليد واستقلالها من التبعية للاديرة ، كما حدث في صناعة الرق حينما كون صناع الرق نقابة متحدة مع دباغي الجلود ، ثم استقلوا بعد ذلك في نقابة خاصة بهم . وظهر في اواخر العصور الوسطى النساخون الممتهنون ، وهم ناشرو الكتب آنذاك . وعلى الرغم من أنهم قد لايستطيعون منافسة الرهبان في دقة النسخ أو الكمال الفني ، إلا أنهم قد بزوهم في انتاج الكتب المدرسية . ولقد قام هؤلاء النساخون باغراق السوق بالمخطوطات مما سد حاجة الناس الى القراءة ، وكان هؤلاء النساخون في بداية الامر من رجال الدين ، وسرعان ماشاركهم العلمانيون في هذا العمل بل فاقوهم في هذا الشأن . وكحقيقة واقعة لابد من ذكر أن الاديرة نفسها لجأت الى الناسخين الممتهنين بعض الاحيان لشراء كتب لمكتباتها . وقد انتج صانعوا الكتب القسم الاكبر من الادب العلماني في زمانهم ، على الرغم من ندرة كل ماانتج في الموضوع . وقد ازدهر النساخ في المدن، ووجد في اواخر العصور الوسطى في المدن الكبرى نقابات منظمة أو شركات منظمة . فقد وجد في لندن نقابات منظمة تضم النساخ وصناع الرق والمجلدين والمزخرفين . فقد وجد حوالي ١٤٠٠ نقابة قوية تضم النساخ عموماً والمزخرفين والمجلدين . وكان بائع الكتب شخصاً قوياً ذا نفوذ وله وكلاء في البلدان الاخرى . وكانوا يتمركزون في المدن الكبرى كباريس ولندن وفرانكفورت وفيينا وبراغ أو حول الجامعات أو حول الأديرة ، وكانوا يعرضون بضاعتهم في الاسواق المحلية والعامة . وغالباً ما كانوا يقيمون حوانيتهم بجوار الكنائس بل داخلها . كذلك كانوا يقومون بتأجير الكتب الى الطلاب الفقراء العاجزين عن شراء الكتب . فقد وجد سنة ١٣٢٣ م بجوار جامعة باريس مالا يقل عن ٢٨ بائع كتب ، وكان بعضهم يعرض للايجار أكثر من ١٢٥ كتاباً مدرسياً . ولقد انتشرت تجارة الكتب خلال القرن الخامس عشر في المانيا أيضاً ، فكانت الكتب تعرض للبيع على عوارض بالقرب من الكنائس ، كما كان المشترون يترددون على اسواق الكتب الكبيرة وخاصة سوق فرانكفورت . وكان أكبر عدد للنساخين موجوداً آنذاك في باريس التي وصفت انها جنة الكتب .

تطور صناعة المخطوط :

واذا انتقلنا الآن إلى دراسة تطور المخطوط نفسه ـ صناعته وكتابته وتزينيه وتصويره . . . وجدنا هناك تطوراً ملحوظاً في هذا المضمار ، وذلك نتيجة للعوامل التي حدثت في ذلك العصر واثرت في تطور فن الكتاب وانتاجه بشكل عام .

فقد ظل الكتاب يعمل من الرق طوال ذلك العصر وحتى بعد اختراع الطباعة بزمن طويل ، ولا شك أن الورق لم يقابل بالترحاب في اوربا ـ لسوء صنعه ولاقترانه بالمسلمين ـ وظل الرق متربعاً على عرشه . وظلت هذه النزعة المحافظة سائدة في اوربا حتى بعد ظهور الكتب المطبوعة المصنوعة من الورق ؛ ولم يبدأ القوم في التخلي عن هذه الفكرة الا في أواخر القرن الخامس عشر واوائل السادس عشر .

كذلك انعكست في كتابة الكتب وتجليدها وتزينيها المؤثرات الفنية التي سادت آنذاك ، فمثلاً ماأن ظهر الطراز القوطي في فرنسا في أوائل القرن الثاني عشر وانتشر بعد ذلك في سائر الأقطار الأوربية حتى ظهر أثر ذلك أيضاً في فن صناعة الكتاب .

وقد تطورت الكتابة نفسها وتحولت من الطراز الكارولنجي ذي الحروف الصغيرة والشكل المستدير الى الطراز القوطي ذي الحروف الاكثر نحافة وتقارباً وزوايا حادة ، وتقاربت الحروف الى حد انه اذا التقى حرفان منحنيان احدهما بجانب الآخر تحول الانحناءان الى خط واحد . كما وان الطراز القوطي ظهر في اسلوب زخرفة المخطوطات ، فقد طال هيكل الحرف الرأسي وذلك عن طريق رسم خطوط رفيعة حادة أو خطوط لولبية أو اغصان مزخرفة تغطي كل الحافة . ويظهر الطراز القوطي في المنمنمات ذاتها لا في رسم وتزيين الاحرف وحدها . فقد صور الاشخاص وهم انحف من المعتاد . اما اساس الصور نفسها الذي كان يغطي بالزخارف الذهبية او التربيعات فلم يكن يبدو في زخارفه هذه اي اتجاه لاظهار الابعاد في الرسم . وهناك خاصة تسمح بان نؤرخ العصر الذي ترجع اليه الصورة الملونة وهي خاصة رسم المناظر الطبيعية في مؤخرة المناظر المرسومة .

وقد تم في القرن الثالث عشر عدد من التطورات في رسم الصور منها رسم المناظر الطبيعية في مؤخرة الصورة ، ومنها حلول ملابس العصر محل ملابس القدماء ونقل مناظر الأرض المقدسة الى اوربا ووضعها في الكتب خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر .

كذلك خرج فن المنمنمات من داخل نطاق الأديرة وازداد ارتباطه بالحياة العلمانية شيئاًفشيئاًبحيث زاد عدد النساخين والرسامين العلمانيين حتى طغو على رجال الدين وانتشروا كل الانتشار في القرن الخامس عشر ، واستخدمهم رجال البلاط والنبلاء . وبدأت تظهر كتب علمانية كثيرة إلى جانب الدينية . وقد اشتهر من المصورين العلمانيين في القرن الرابع عشر جان بوسيل Jean Pucelle ، وأهم كتبه التي زخرفها كتاب **صلوات بلفيل** الموجود حالياًفي المكتبة الأهلية في باريس . وهو كتاب رائع لما به من انسجام وتوافق تام بين الكتابة والرسوم والامتزاج الجميل الذي يحويه بين صور الحيوانات والازهار والرسوم الممثلة للطبيعة تمثيلاً واقعياً بحتاً مع مايحيط بها من الاطارات والزينة الرائعة ، حتى صار للكتب التي خرجت من مرسم جان بوسيل أثر كبير في الفن الفرنسي لتلوين المخطوطات .

كذلك ظهرت في نفس القرن الرابع عشر مدرسة تزيين المخطوطات التي تسمى باسم المدرسة الفرنسية الفلمنكية . ذلك ان جمهرة من الفنانين الفلمنكيين وفدوا للاقامة في باريس زمن جان بوسيل . وكان هؤلاء الفنانون معتادين على زخرفة المخطوطات وتزيينها في بلادهم ببراعة تامة وحماسة لاتقل عن حماسة الفنانين الفرنسيين . ولقد تأثر هؤلاء الفنانون بالفن الفرنسي تأثراً قوياً ، وهكذا نشأ في عالم الفن مدرسة فرنسية فلمنكية .

وقد استخدمهم جان دوبيري وكلفهم بزخرفة اكثر من ثلاثمائة مخطوط زينوها بمناظر خلابة عن حياة الشعب الفلمنكي . وهكذا عرفونا بدقائق الحياة والعادات التي كانت سائدة في الفلاندر في القرنين الرابع عشر والخامس عشر . وقد اشتهر منهم عدد من الفنانين لعل اشهرهم بول دولامبور الذي اعتبر صاحب الفضل الاول في ادخال عنصر المناظر الطبيعية في تلوين المخطوطات ، حتى انه اشترك مع اخويه في رسم كتاب **ساعات الصلوات** الشهير للدوق دوبيري وهو

موجود حالياً في متحف كونديه في شانيتني ؛ وتعتبر رسومه من روائع الفن الواقعي بحيث نجد في مؤخرة صور التقويم كثيراً من صور القصور الملكية أو قصور الامراء كاللوفر وغيرها ممثلة اصدق تمثيل .

كذلك ظهر في نفس القرن الرابع عشر الفنان الفرنسي العظيم جان فوكيه في مدينة تور ، ويعتبر اعظم مصوري المخطوطات الفرنسيين . تأثر فوكيه بالمدرسة الفلمنكية وتأثر بالفن الكلاسيكي وبالفن الايطالي . إلا أنه كان ذا عبقرية فذة جعلته يمزج جميع تلك المؤثرات ويستخرج منها فناً ذا اصالة خاصة ، فقد ضارع من سبقه من الفنانين من حيث رقة ألوانه وصفاء رسومه ، ولكنه فاقهم كثيراً في معانيه وطبيعة صوره . لقد اصبحت الصورة لديه توضيحاً حقيقياً للنص المرفق بها ، ولم تعد مجرد عنصر زخرفي بحت . كذلك كان لمناظره الطبيعية سحر فرنسي حقيقي . ولقد خدم جاك فوكيه البلاط الفرنسي في عهد شارل السابع ولويس الحادي عشر ، كما خدم الكثيرين من هواة الكتب البارزين . وتعتبر صوره الواردة في كتاب ساعات الصلوات المحفوظ الآن في متحف كونديه من اروع مارسم .

اما تزيين المخطوطات في عصر النهضة فيعكس وجهة نظر النهضة ومثلها العليا في العودة الى القديم الكلاسيكي اليوناني الروماني . وعلى الرغم من ان رجال النصف الثاني من القرن الخامس عشر ركزوا كل انتباههم على نصوص الكتب نفسها ، الا انهم لم يهملوا المظهر الخارجي للكتاب ، ومن اغنى هذه المخطوطات زخرفة في عهد النهضة عدد كبير بدأ ظهوره في القرن الخامس عشر .

هذا وتمتاز رسوم مخطوطات عصر النهضة بزخارفها المأخوذة من العصر القديم مثل مناظر آلهة الحب والاعمدة والاصص والاحجار الكريمة وما الى ذلك من الرسوم التي استخدمت في زخرفة الاطارات والحروف الكبيرة Initials . أما الكتابة فكانت تقليداً للكتابة الكارولنجية ذات الحروف الصغيرة ، ومن هذه الكتابة التي اتخذها الانسانيون اشتقت فيما بعد الكتابة اللاتينية المستخدمة الآن والتي حلت في كافة البلاد محل الكتابة القوطية ، فيما عدا البلاد التي تتكلم الألمانية .

ولعل اروع ماتم بالنسبة للكتب في اوائل عصر النهضة ، التجليدات الفخمة المترفة التي خصصت لها مبالغ ضخمة لتجليد بعض المخطوطات الثمينة للملوك او الاثرياء . وكان من مظاهر هذه الحركة ان جلدت بالقطيفة الحمراء المحلاة بالفضة جميع كتب البابا نقولا الخامس تقريباً . واغلب زخارف هذه التجليدات تتبع الطراز القوطي ولها زخارف مطبوعة على البارد ، وهي الطريقة التي سبق ذكرها . وكان يستعمل في هذه التجليدات جلد العجول والوعل . اما الهواة وذوو الاذواق الرفيعة فكانوا يستعملون جلود الماعز المستوردة من مدينة قرطبة .

وكانت الحليات الكبيرة تصنع من النحاس الاصفر المحفور . وهي التي كانت تثبت في اركان التجليدات ووسطها ، بالاضافة الى الاقفال المثبتة في الكتب ، وهي تشهد بالمقدرة الرائعة لصانعيها . وكانت حواف الكتب تلون غالباً باللون الاخضر او الاصفر وندر تلوينها باللون الاحمر . ولايزال بعض هذه التجليدات موجوداً في عدد كبير من المكتبات . وهي تحمل طابعاً ثقيلاً وصلابة . وهي صفات تناسب اوراق الرق المؤلفة لصفحات المخطوط . والواقع ان صحائف الرق من شأنها ان تثقل من وزن الكتاب وحجمه مما يستلزم بطبيعة الحال تجليده بغلاف قوي . وقد استعمل هذا النوع من التجليد طوال القرن الخامس عشر في انكلترا وفرنسا ودول الشمال .